
الدكتور عمار هلال
الطرق الصوفية
ونشر الإسلام والثقافة العربية
في غرب إفريقيا السمراء

الدكتور عمار هلال

الطرق الصوفية
ونشر الإسلام والثقافة العربية
في غرب إفريقيا السمراء



الاهــداء

بمناسبة الذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة التحريرية الكبرى ، أهدي هذا الكتاب للمناضل الحق ... ولكل شاب وشابة جزائرية غيور على وطنه مقدرا عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه ...

مقـــدمة

يرجع سبب إهتمامي بالطرق الصوفية وتطورها إلى الخطوات الأولى التي خطوتها في ميدان البحث ، وأنا أجمع المادة لتحضير أول شهادة عليا لمرحلة ما بعد التدرج ، في جامعة الساربون بباريس ، وقد جلب انتباهي آنذاك الإهتمام الكبير للفرنسيين بالطرق الصوفية ، ليس في الجزائر فحسب ، ولكن أيضاً في كل المناطق التي تدين بالإسلام وخضعت لنفوذهم . ومن ثمة اعتقدت خطأ ، أن المصادر الفرنسية بحكم اهتمامها بالموضوع منذ علاقاتها الأولى بأفريقيا : ستساعدني كثيراً على معالجة موضوعي ، وإنجاز عملي في أقرب وقت ممكن كاملًا ، شاملًا ، لكل جوانبه العلمية ، والثقافية ، والإقتصادية ، والإجتماعية ، والسياسية .

وبعد فترة قضيتها في البحث عن مادة الموضوع ، اصطدمت بالحقيقة المُرة ، وتبين لي واضحاً ، أن ما كتبه الفرنسيون عن الطرق الصوفية سواء في الجزائر أو في افريقيا السوداء ، في مجمله يكاد يكون مُركزاً على جانب واحد ، من النشاطات المتعددة التي قامت بها الصوفية في افريقيا ، وهو الجانب السياسي ، وفي مرحلة ثانية اتضحت لدي الرؤية أكثر فأكثر ووقفت ربما على

أهم شيء في الموضوع ، وهو عدم معرفة الفرنسيين ، «وجهلهم» التام لجوهر وفحوى النظام الطرقي في افريقيا .

فإذا كان الكتاب الفرنسيون قد استهلكوا أطناناً من الحبر للتعريف على الطرقية وتطورها في القارة ، فإن هذه الكتابات الوصفية والتحليلية منها للزوايا أو الأضرحة ، أو هذا النظام أو ذاك ، لم تتعد قط جدران هذه الأخيرة ، وبمعنى آخر لم يعرف الفرنسيون من الزوايا في افريقيا سوى مظاهرها الخارجية ، وبعض نظمها الشائعة بين الناس ، لكن جوهر هذه الأخيرة بقي مخفياً عليهم ولم يهتدوا إليه أبداً .

ويكاد الفرنسيون ألا يفرقوا بين مختلف الطرق الصوفية التي عملت في افريقيا فبالنسبة إليهم ، لا فرق من حيث المبدأ ، بين القادرية والتجانية مثلا أو بين السنوسية والشاذلية أو بين الرحمانية والعيساوية ، وغيرها ، فالطرق الصوفية عندهم (واحدة لا تتجزأ) إنما تختلف باختلاف تسمية أصحابها فقط .

ومواقفها من الإستعمار «واحدة» ، ومن الحضارة الغربية والجنس الأوربي «واحدة» لا تختلف عن بعضها البعض في شيء .

وقد استنتجت «جهل» الفرنسيين لجوهر الطرق الصوفية وللتطور العميق الذي عرفته خلال القرنين 19 و 20 ، خلال مناقشتي لشهادة الدكتوراه ، في جامعة آكس أن بروفنس ، وقد أشرف على هذه المناقشة أساتذة كبار ذوو اختصاصات مختلفة ، منهم الأستاذ الدكتور برينو إيتيان (Bruno Etienne) الذي اهتم طويلًا بالطرق الصوفية وقد دارت بيني وبين هذا الأخير مناقشة حادة فيما يخص أنواع الزوايا التي وجدت في الجزائر وقد قسمتها إلى نوعين هامين وهما :

الخلواتي وغير الخلواتي ، ثم صنفت كل الطرق الصوفية ووضعتها حسب ظهورها في الصنف الذي تنحدر منه . فأنكر علي الدكتور برينو هذا التصنيف أوالتقسيم من أساسه ، ولم يعترف به ... ولكننا اتفقنا على نقطتين أو ميزتين أساسيتين امتازت بهما الطرقية في الجزائر ، وهما : عدم مهادنتها للإستعمار ، حتى نهاية القرن الماضي ، والدور السلبي الذي لعبته منذ ذلك الحين ، بانحيازها ومهادنتها للإستعمار في البلاد والميل والتودد إليه .

ومهما يكن من أمر فموضوع الطرق الصوفية ، بغض النظر عن السلبيات التي نتجت عن ظهور المذاهب الصوفية المختلفة ، منذ بداية القرن الثامن الميلادي فهو جدير بالإهتمام ، خاصة فيما يتعلق بغرب افريقيا السوداء ، علماً أننا نقصد هنا «بالطرق الصوفية» تلك التي كانت طواقة للإصلاح الديني والإجتماعي ، وجعلت من نشر الدين الإسلامي والثقافة العربية قضية لها ، وهدفاً من أهدافها ، ومن الحرية وعدم الإستعباد منهجاً لنشاطها في غرب افريقيا السوداء ، سواء منها تلك التي ظهرت في الجزائر ، مثل التجانية والسنوسية ، والشاذلية التي ظهرت في تونس ، أو القادرية التي أخذت طريقها إلى المنطقة عبر ضفاف وادي النيل ، ثم السودان الشرقي لتصل إلى قلب السودان الغربي . وتمييزاً للمراحل الهامة التي مرت بها الطرق الصوفية في غرب افريقيا السوداء ، أطلقنا على المرحلة التي تهمنا منها ، وهي بداية ظهورها وانتشارها إيجابا من كل النواحي ، في المنطقة ، إسم «الطرق الصوفية الأصيلة» . أما الطرقية الحديثة التي انحرفت عن المباديء السامية ، والأهداف التي ظهرت من أجلها فلا يهمنا منها شيء ، ولا مجال هنا للتكلم عنها بأي شكل من الأشكال .

وأخيراً أريد أن ألاحظ هنا الدور الذي لعبته كل من التجانية

والسنوسية ، في نشر الإسلام والثقافة العربية في غرب أفريقيا السوداء ، وربط الصلات بين كل من الجزائر وهذا الجزء من القارة في أكثر من ميدان ، باعتبارهما قد ظهرتا في الجزائر ثم امتدت جذورهما إلى السودان الغربي ، حيث قدر لكل منهما أن تلعبا دوراً هاماً أساسياً واجتماعياً وثقافياً لم تلعبه على الأرض التي ظهرت عليها وتربت وترعرعت فيها .

الجزائر 6 جوان 1984 م .

الدكتور عمار هلال

مـدخـل

أن نقطة البداية التي ننطلق منها لفحص تاريخ «علم التاريخ» لاية أمة كانت أو لأية فترة تاريخية أردنا دراستها هي الأدلاء بآرائنا الخاصة عن وظيفة التاريخ وواجب المؤرخ ، وهذه الآراء في الحقيقة ما هي الانتاج زمننا الراهن ، ونتاج الأقدمين الذين سبقونا في هذا الميدان . والفرق بين المؤرخ الحق ، وجامع الوثائق والاسانيد والتحف والآثار ، أن المؤرخ قد هضم مواد عصره وامتزجت معرفته بنفسه وكيانه حتى صار يستطيع أن يعرف كنه العصر وروحه وطبيعته ، وما كان يحتمل وقوعه في ذلك العصر . وعملية استخراج الحقائق التاريخية تشبه في بعض الاحيان استنطاق الشهود في المحكمة للوصول الى معرفة الحقيقة ، على أن هناك فرقا هاما يتمثل في أن المحكمة ترى الشهود ماثلين أمامها ، ولكن المؤرخ عليه أن يناقش شهودا من «الموتى» وطريقة استجوابهم غير متكاملة ، وفي بعض الأحيان تكون الشهادة باطلة من أساسها أو مزيفة مصطنعة نتيجة

للميل الى التلفيق والاختلاق ... وذلك ما فعله المؤرخون الغربيون عامة والفرنسيون منهم خاصة بتاريخنا الوطني قديمه ، ووسيطه ، وحديثه ، فطالما اعتمد هؤلاء التضليل كوسيلة لبلوغ مقصدهم ، وتورطوا في الأخطاء عمدا ، وتعلقوا بالاوهام ، وبنوا على الرمال آراءهم ، وتزوير الوثائق وتسجيل الاباطيل والكذب والمبالغة وتشويه الواقع ، والوقائع ، زيادة أو نقصانا ، وليس الخطر هنا في هذا النوع من الكتابات في حد ذاته وانما الخطر يكمن حينما يأتي بعد هؤلاء مؤرخون آخرون ويتفقون معهم ، ويعتمدون عليهم وينقلون عنهم ، ويرون فيما كتبوا مراجع أو مصادر لا يأتيها باطل ، ولا يتسرب اليها الخطأ ، وفي هذه الحالة يكتسب الخطأ والباطل نوعا من «القداسة» يجعل التشكيك فيه أو رفضه جزئيا أو كلية ، أو عدم التعويل عليه ، من أشق الأمور .. وهل نستطيع أن نعول على هذا النوع من الكتابات التاريخية في تكوين أجيالنا الصاعدة خاصة ، وتوعية وأشعار الأجيال الراهنة بالمسؤولية الملقاة على عاتقها في التنمية الوطنية بمفهومها الشامل الكامل ؟

ـــ التاريخ والتكوين .

لم يفرق الفيلسوف الالماني الشهير فخته(1) بين العلم والعمل واعتبرهما مكملين لبعضهما البعض . وقد ذاع صيته بين

---

(1) عاش فيما بين عامي 1762 ـــ 1814

أهله وبني جلدته كمفكر عميق ، له أصالة فكرية واضحة ، وكمرشد أو موجه لأمته .

ويظهر هذا الاتجاه عند فخته في مؤلفه ، «غاية الانسان» (1) اذ قرر هذا الفيلسوف الفذ الرجوع الى تاريخ الامة واتخاذه كوسيلة لصقلها وتكوينها تكوينا يتماشى ومتطلبات العصر والأحداث الجسام التي كانت تعيشها المانيا المنقسمة على نفسها سياسيا وفكريا ، ومن جملة العلوم الانسانية لم يجد من وسيلة يعمد اليها «لضم الصفوف وتوحيد الوطن الضعيف المجزأ» سوى اللجوء الى علم التاريخ الذي اعتبره : «المربي الأولى والمكون للأمة» .

وكان للأحداث التاريخة الهامة التي عاشتها المانيا وقع كبير في نفس فخته ، بحيث هذبت آراءه وصقلت أفكاره ، وبالأخص منها الغزو النابوليوني لبلاده ، الذي جعله يتوجه الى أمته بنداءات تقوم أساسا على فلسفة التغيير ، تغيير الواقع الداخلي ، الذي يقصد به — تغيير داخلية الفرد — قبل التفكير في أي تغيير آخر ، لأعتقاده الثابت بأن الانسان هو الأساس ، وهو الذي يستطيع «التغير أو اللاتغيير» . ومن ثمة فأول ما صمم فخته عليه هو العمل على تحقيق تربية قوميه لاحياء الأمة الألمانية ، وأعتبر أن المعركة هي معركة مباديء

---

(1) ترجمة فوقية حسين محمود ، ص 338 — 340

وأخلاق ، يتم كسبها بتحقيق صهر كامل عميق لداخلية كل فرد ، بحيث تصبح طاقته الروحية مسخرة لبناء نفسه أولا ثم لبناء الوطن ثانية ، ومن ثمة تتجلى واصحة أهمية التكوين كضرورة لبناء الوطن .

وقد خلقت هذه الفلسفة جيلا قويا ورجالا أحرارا ضحوا بالنفس والنفيس من أجل مباديء عليا ، وزودت الرجال بارادة صلبة لا تلين ، وشعورا بالكرامة الواعية التي لا تترك للأحداث فرصة لهدمها ، ارادة تصدت للمكاره ، والأخلاق الضحلة ، وروح الاتكالية ، والسذاجة والتذبذب الفكري والثقافي ، وحددت مواقفها من الأحداث بكل جرءة وشجاعة .

وقد مثل في القرن التاسع عشر المؤرخان الألمانيان فون رانكه (VON RANKE) وتريتشكه (TRITCHKE) النزعة الموضوعية التي تدعو الى اتخاذ التاريخ كوسيلة للوصول الى تلقين الاجيال الصاعدة «تعليما صادقا» .

— يقول فون رانكة عن علم التاريخ : «انه مرآة تتراءى فيها الاحداث كما وقعت» — وليس كما نريدها نحن أن تقع — وفي رسالة بعث بها الى شقيقه هنريك يقول : «ليست فكرتي الاساسية هي قبول هذا المذهب أو المذهب الآخر أو المذهب الوسيط بينهما ، وانما هي معرفة الحقائق والسيطرة عليها واظهارها ، والتعليم الصادق لا يكون الا بمعرفة الحوادث » معرفة صحيحة .

واذا كان رانكة أكثرَ المؤرخين موضوعية فان تريتشكة أشدهم ذاتية ، وقد كتب مرة يقول «أن القلب القوي الذي يشعر بأن مسرات وطنه وأحزانه هي مسراته وأحزانه ، هو وحده الذي يستطيع أن يكون صادقا في سرد التاريخ» . وكان تريتشكة يكتب التاريخ لا ليسجل الاحداث وانما ليلقن الدروس ، ويقدم العظات ، ويقوي في أمته الشعور القومي والنزعة الوطنية . واذا كان هذا النوع من الكتابات التاريخية ، من حيث المنهج العلمي التاريخي الحديث ، ومن حيث الموضوعية التاريخية قابلا للنقاش ، فاننا نرى أننا في حاجة اليه بالنسبة لتكوين النشىء الجديد ، وتكوين عامة الشعب أو الذين لم يكن لهم حظ وافر في التعليم والتثقيف .

ومن الكتاب الجزائريين المحدثين الذين أهتموا بهذا النوع من الكتابات التاريخية التي تهدف الى تربية النشيء وتكوينه تكوينا سياسيا وثقافيا يجعله دوما متمسكا بأصوله غيورا على الحضارة والثقافة اللتين ينتمي اليهما ، نذكر الشيخ توفيق المدني ، ومبارك الميلي ، وعبد الرحمان الجيلالي . وفي هذا المجال يقول الشيخ مبارك الميلي (1) «متى درسه ـــ التاريخ أبناء أمة وأحاط خبرا بأدواره شبا بها عرفوا وجودهم ، فلم تبتلع قوميتهم القوميات الحية النهمة المجاورة لهم ، وأدركوا ما لماضيهم من المجد وما لاسلافهم من الشرف ، فلم يقبلوا تنقيض المنقصين وعبث

(1) تاريخ الجزائر في القديم والحديث ص 11 ، الجزائر ، 1976

يقفون في دراستهم الثانوية ، وخاصة في السنة النهائية منها ، سوى على ثلاثة محاور رئيسية تدور حول آسيا وأوربا وأمريكا ، ولا يتلقون الا شيئا زهيدا من التاريخ الوطني يكاد لا يذكر ، لا يؤهلهم ، ولا ينطبق بأي حال من الأحوال مع المواضيع والبرامج التي سيدرسونها في مرحلة التدرج بالجامعة .

وقد أصبحت هذه الطريقة جزءا من عاداتنا وتكويننا التاريخي . فتقييم الأزمنة التاريخية الى مراحل هامة ، وأخرى أهم ، وبعضها في نظر المشرفين على توزيع البرامج الدراسية «لاقيمة لها ، ولا مكانة لها بين الصنفين الأخيرين» ومن ثمة أهملت اهمالا كليا . ومن جهة أخرى نلاحظ انقطاع الترابط بين المراحل التاريخية المقررة في البرامج التعليمية للمراحل الثانوية شيئا عاديا ــ الشيء الذي يشعرنا بتقطع تاريخنا تقطعا لا يتفق مع الواقع في شيء .

وقد نبه كثير من المفكرين وحذروا من النقائص الخطيرة التي يحدثها هذا التعليم التاريخي المتقطع ، وشعر الكثير منهم بانزعاج حين لاحظ فجوات هامة في معارفه . وقد درس هذه الظاهرة كثير من المفكرين المحدثين وأطلق عليها أحدهم (1) اسم «صداع الفجوات» وهو صداع حقيقي يشبه في كل جوانبه ذلك الذي يحس به المسافر في طريق طويل غير معروف ، ثم يدرك فجأة أنه غير مزود بخريطة بيانية لهذا الطريق (2) .

---

(1) أنظر شاتلية : نورماندیا المتوسطة .

(2) ماكس ڤانتاجو : المعجزة العربية بيروت 1954 ص 9

المدلسين وقدح المغرضين ، وشعروا بعز السيادة ولذة الحياة ، فأنفوا من سيطرة المستبدلين ولم يخضعوا لذل المستعبدين ... »
ولكن كيف يتحقق ذلك ؟ وهل البيداغوجية التي يدرس بها آنيا التاريخ كفيلة بسد النقص المتزايد في تكوين اطارات تعليمية كفأة تسترجع لهذه المادة مكانتها العلمية والثقافية المنوطة بها ؟ وهل البرامج التعليمية للتاريخ ، في كل المراحل ، كاملة ، شاملة ، مطابقة للمخططات التنموية للبلاد ؟

كلنا يعرف فساد الطريقة التي يعلم بواسطتها التاريخ ، في جميع مراحل تعليمه ، وهي طريقة تعليمية تقليدية عتيقة ظهرت بظهور تدريس هذه المادة ، وتناولتها الأجيال منذ عصور غابرة في التاريخ ، ولا تزال مستعملة في مؤسستنا التعليمية حتى اليوم بمساوئها الكثيرة التي تركت وستترك أسوء الآثار في تكوين النشء الصاعد . واذا أضفنا الى ذلك الضعف البارز الذي يتميز به المدرسون لهذه المادة ، يتبين لنا عدم جدوى هذه الطريقة بشكل ملحوظ .

واذا فحصنا البرنامج التعليمي المعمول به آنيا في المرحلة الثانوية مثلا ، التي من شأنها تحضير التلاميذ للدخول الى الجامعة ، والتخصص في علم التاريخ ، نلاحظ بكل بساطة فقدان المنطق في توزيع مواده ، وفساد النتائج ، مالا نجد معه أية فائدة في تحليله وتمحيصه .

والحق أن من لا يتخصصون في الدراسات التاريخية ، لا

اذا اتفقنا على التنمية هي بناء المصانع المختلفة والتحكم في التكنولوجيا تحكما يساير مدى انتشار هذه المصانع وفعاليتها في تطوير البلاد ، وتحديث الزراعة ومكننتها ، بشكل يجعلها لا تستجيب فحسب لتطلبات البلاد ، وانما أيضا لمتطلبات غيرها من البلدان الأخرى ، وتكوين المهارات التقنية لتسيير المصانع والمزارع بنشر التعليم نشرا كافيا يجعله يمس جميع فئات المواطنين ، فان كثيرا من المجهودات المعتبرة ماليا وبشريا قد وفرتها الجزائر بغرض تنميتها اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، ولكننا كثيرا ما نلاحظ بتأسف شديد تعثر بعض خطط التنمية التي وضعت هنا وهناك ، أو عدم جدواها بعد انجازها بسبب شيوع التقصير أو اللامبالاة بين العمال عامة والاطارات المسيرة لهذه المشاريع خاصة .

وعموما فقد أثبتت الاحصاءات الحديثة أن العامل العربي أقل انتاجية ومردودية من العامل الأوربي أو الامريكي . وليس المجال هنا لدراسة هذا الموضوع ، وانما الذي يهمنا هنا هو كيف نتعلم حب البناء والمبادرة ، والروح الاجتماعية أو حب التضامن والترابط ، والفصل بين الطاعة والاستكانة وبين الاختلاف في الرأي والتمرد (1) .

---

(1) الفريد فرج : الوظيفة الاجتماعية للفنون ، مجلة الثقافة عدد 79 ص 15 .

وفي نظري فإن للتاريخ دورا لايستهان به في تعليم النشء وحب البناء والمبادرة ، اذا عرفنا كيف نسخره لذلك ، ووفرنا له الشروط الضرورية للقيام بالمهمة المنوطة به ، وأدركنا النقائص التعليمية السائدة في جميع مراحل تعليم هذه المادة ، ووجدنا الحلول الناجعة لها ، بكيفية تجعل تدريس التاريخ مسايرا للتطور التنموي الوطني الشامل .

ويجعل بعض المفكرين (1) والدارسين للحضارة الانسانية من التاريخ شرطا ضروريا ومادة أساسية لتكوين الأفراد في كل المجالات الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والثقافية منها ، بل هناك من علماء الاجتماع من ذهب الى حد اعتبار أي مثقف لا إلمام له بالتاريخ ، أو مختص في مادة علمية أخرى غير التاريخ ومعلوماته التاريخية ضعيفة مثقف من الدرجة الثانية ، مثقف ذو حداثة عهد ، وعن ذلك يقول أحدهم :

«فتقديري أن من يستقل مركبا لسفر الحياة دون أن يدرس ، بل دون أن تكون بين يديه مخططات كاملة لتاريخ حضارته هو من حداثة العهد ، بحيث يكون كالمسافر الذي يرحل لسفر طويل جدا ، دون أن يكون مزودا بخرائط جغرافية لهذا الغرض .

أما عن أهمية التاريخ في مجال التكوين السياسي وضرورة المام القيادة السياسية بالتاريخ الوطني ، وغير الوطني ، يقول نفس الكاتب :

---

(1) ماكس فنتاجو : المرجع السابق ص : 10

«اذا كان هذا هو رأي في المسافر العادي فما عساه أن يكون في القائد الدليل ؟ وفي كل مرة يتاح لي فيها الحكم على معارف حكامنا التاريخية ، بواسطة خطبهم أو كتابتهم ، أو باتصلاتي الشخصية بهم ، أشعر مع الأسف الشديد ، عدا حالات استثنائية ، في مفاجاءات (مؤلمة ، بأن هذه المعارف لسيت أكثر من المعارف الابتدائية المتداولة بين تلاميذ هذه الصفوف .

وفي موطن آخر يضيف مايلي : «وقد حدث أن شعرت بانزعاج شديد حين سمعت أحد وزرائنا يتكلم عن علاقات الفرنسيين والعرب بطريقة تثبت جهله المطلق بماضي هؤلاء العظماء ، وسمعته يصرح للصحف بتأكيدات مدهشة لا تدع مجالا للشك في أن ما يعرفه عن سيروس (Cyrus) هذا أن عرفه ، قد اطلع عليه في رواية الآنسة سكوداري . فأحسست بشيء من القلق وأنا أفكر بأنني وكل المواطنين الفرنسيين موجودون في طائرة يقودها أمثال هذا القائد » .

«أنني أجهل في أية رحلة من العمر أو في أي مكان ، وبواسطة من يجب أن تعرض علينا خريطة التاريخ التي هي حضارتنا ، كما لا يحق لي الالماح اليها ، لأن ذلك مهمة المربي . ولكن يتعذر علي ، في بلد ينتسب الى عالم متمدن ، أن أفهم كيف أن مهندسين يخرجون من المدارس الكبرى الفرنسية وهم يجهلون في أي عصر كان يعيش فيه أرخميدس ، وأن فنانين لا يعرفون شيئا عن فن (غوبتا) ، وأن رجال الدولة لا يعرفون شيئا عن عصر هارون الرشيد الامن خلال ألف ليلة وليلة» .

واذا كان هذا هو رأي بعض المفكرين الفرنسيين في وضعية الدراسات التاريخة في بلد متحضر كفرنسا ، فما هي اذن وضعيتها بالنسبة للجزائر كبلد في طريق النمو ؟ ألا تدعو هذه الوضعية الى القلق والحيرة ؟ واذا علمنا أن السياسة التكوينية المستقبلية عوض أن تفكر في الحلول الناجعة لهذه الوضعية المتدهورة التي تعيشها العلوم الاجتماعية ، قد رجعت الكفة بشكل ملحوظ لصالح التكنولوجيا ، وذلك على حساب الروح ، التي طالما حرمت من غذائها طوال الاحتلال الفرنسي للوطن ، وما أن بدأت قطرات الندى تنعشها وتقلل من ظمئها حتى لاحت في الافق أخطار ، وتهديدات تحمل في طياتها أكثر مما نحن ننتظره منهما .. فما هي الحلول اذن ؟ وماذا يجب علينا أن نقوم به للتنقيص ، على الأقل من الأضرار التي قد تلحق بالعلوم الاجتماعية مستقبلا ؟ .

الفــصل الأول

تطور نشر الاسلام في غرب افريقيا السوداء

الاسلام في السودان الغربي

يذهب بعض مؤرخي الغرب ، وخاصة النزهاء منهم الى أن الاسلام هو الذي فتح باب التاريخ لافريقيا السوداء . أما قبل الفتح الاسلامي فتاريخ افريقيا لم يبتعد قط عن ضفاف البحر الابيض المتوسط . والاحداث الجسام التي تعرضت لها القارة لم يصل صداها الى العالم الخارجي الا بعد الفتح الاسلامي .

ويرجع تاريخ انتشار الاسلام في افريقيا السوداء الى القرن الأول الهجري ، أي السابع الميلادي ، وفي هذه الحقبة التاريخية المتقدمة للاسلام حمل التاجر المسلم دينه معه عبر رحلاته التجرية الى ربوع مناطق افريقيا السوداء .

وقد استطاع الاسلام في أول عهده ، وفي فترة وجيزة أن يستحوذ على قلوب الزنوج الأفارقة وتركت كثير من الأقطار

الزنجية المتاخمة لكل من مصر والمغرب العربي الديانة المسيحية وانقلبت الى الاسلام .

علاقة افريقيا السوداء بالاسلام :

يرجع تاريخ علاقة الاسلام بالقارة السمراء الى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اذ تدفقت الجيوش الاسلامية آنذاك فاتحة عبر برزخ السويس نحو مصر . وفي سنة 641 للميلاد غزى عقبة بن نافع بلاد النوبة الشمالية . ويبدو أنه لم يتوغل كثيرا في البلاد . وابرمت اثر غزواته هاته هدنة تعتبر من الناحية العملية انتصارا كبيرا للاسلام في شرق القارة السمراء .

وفي عهد تولى عبد الله بن أبي السرح ولاية مصر نقض النوبيون هذه الهدنة فجهز هذا الأخير حملة عسكرية أوكل لها تأديب النوبيين . وتوغلت هذه الحملة في مملكة المقرة حتى عاصمتها «دنقلا العجوز» ، وذلك سنة 652 للميلاد . وحاصر المسلمون عاصمة النوبة هذه حتى طلب ملكها الصلح ، واضطر الى عقد معاهدة معهم ، دارت محاورها الرئيسية خاصة على المحافظة على مكتسبات الاسلام في المنطقة وعلى عدم مضايقة الاسلام والمسلمين هناك من قبل السلطات الحاكمة للبلاد .

ومما لا ريب فيه أن الاسلام بلغ أوج انتشاره في شرق القارة السمراء في عهد الدولة الطولونية حيث قاد عبد الرحمان

بن عبد الله بن عبد الحميد العموي حملة حربية نحو بلاد النوبة في سنة 868 للميلاد . وكان هذا الأخير شخصية دينية فذة واستطاع بغزواته هاته أن ينشر الدين الاسلامي والثقافة العربية في أرض النوبة ، ومن ثمة ، زاد استقرار العرب بشكل ملحوظ في هذه البقاع .

وهكذا كان هناك اتصال وثيق بين افريقيا السوداء والحضارة العربية الاسلامية ، وذلك منذ القرن الأول للهجرة النبوية كما ذكرنا سلفا .

وقد سارت حضارة العرب غرب النيل وجنوبه عبر الفيافي والقفار(1) وبعد الفتح الاسلامي لشمال افريقيا اخترق الاسلام صحراءها نحو الجنوب ووصل قلب افريقيا السوداء ، وذلك حتى خط الاستواء واستقر العرب عند سواحلها الشرقية والغربية وانتظمت القوافل التجارية بين الطرفين .

واذا كان الاسلام قد انتشر بدون أية صعوبة في السودان الشرقي وكرس وجوده في سواحل القارة السمراء الشرقية ، فانه شاهد انتشارا في غربها لا يضاهيه انتشاره في أية منطقة أخرى من القارة .

وقد كانت العلاقات تربط من أقدم العصور المغرب الاقصى بالسودان الغربي . وبعد الفتح الاسلامي لافريقيا

---

(1) أنظر محتوى المعاهدة في مروج الذهب ج 3 للمسعودي ، باريس بدون تاريخ ص 31 — 33

الشمالية اتخذ الاسلام طريقه نحو غرب القارة عبر الصحاري ، ولكن الغابات الكثيفة وقفت أمامه ردحا من الزمن مشكلة الحصن المنيع للوثنية ، ولكن سرعان مازال هذا العائق أمام انتشار الاسلام بانشاء طرق المواصلات وتطويرها عبر الحشائش العالية والغابات الكثيفة .

وقام المرابطون خلال القرن الحادي عشر الميلادي بدور هام في نشر الاسلام في غرب افريقيا واستطاعوا أن يدخلوا الاسلام الى المناطق الممتدة من الاطلنطي حتى غاوو عاصمة مملكة سنغاي الذي أعتنق سلطانها الاسلام دينا حوالي سنة 1075 للميلاد (1). وقد قلدته حاشيته وأسلمت بإسلامه . وخلال القرون التي تلت انتشر الاسلام انتشارا كبيرا في الجزء الغربي من القارة السمراء .

وكان المرابطون قد حملوا على عاتقهم مهمة نشر الدين الاسلامي في المنطقة عن طريق بعض الفتوحات وارسال الدعاة بقيادة عبد الله بن ياسين ، الذي ركز نشاطه في أول الامر على القبائل الافريقية التي تقطن حوض السينغال . والتف حوله كثير من الانصار وبذلك وجد الاسلام طريقه الى السوادن الغربي مفتوحا .

ـــ دور القبائل الافريقية في نشر الاسلام :

لقد حملت القبائل الافريقية التي كانت تقيم في حوض

(1) أحمد سويلم العمري : الافريقيون والعرب ، ص 60

السينغال راية الدعوة الاسلامية كقبيلتي التكرور وسارا كولي ، وذلك حتى وادي النيجر ، ثم خلفتها في مهمتها هذه قبائل الفلاني خلال القرن السابع عشر الميلادي .

ولعل قيام السلطات الاسلامية في غرب افريقيا وشرقها هو أقطع دليل على انتشار الاسلام في القارة ، بحيث أسلم ملك التكرور حوالي 1048 م. وأسلم ملك سنغاي حوالي 1075 م. وفي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي أسلم سلطان مالي كنكن موسى ، الذي حج حجته الشهيرة سنة 1334 م. وقد صاحبه عند عودته من البقاع المقدسة أربعة رجال أتقياء من قريش ومهندس أندلسي يدعي الساحلي ، وقد يعود اليه الفضل في تخطيط تمبوكتو ، وعدة مدن أخرى في السودان الغربي . ويروي عن كنكن موسى هذا ، أنه أمر بتأسيس مسجد في كل مكان وقف فيه لصلاة الجمعة وهو ذاهب الى الحجاز ، وذلك في المناطق الواقعة ما بين السودان الغربي ومصر .

وعلى ما يبدو فهو الذي أسس مسجد غاوو ومسجد تيمبوكتو الكبير ، وهو مسجد السنكري الشهير الذي يعتبر من أهم مراكز الاشعاع الثقافي العربي في غرب افريقيا خلال القرون الوسطى . كما أسس السلطان المالي كنكن موسى مسجد دكزى ، أو أدكر ، وغو دام ، وديبري ، ومسجد ونك أو باكو .

ومن الممالك الاسلامية التي قامت في غرب افريقيا ما بين القرنين الثالث والتاسع عشر الميلاديين نذكر : ممكلة غانا التي تأسست في بداية القرن الثالث الميلادي وتطورت تطورا ملحوظا خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ، ومملكة صوصو ، غرب مالي التي ظهرت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ، واعتنق ملكها شأنه شأن السلاطين الافارقة الآخرين ، الاسلام دينا ، في بداية القرن المذكور سابقا ، ومملكة مالي التي تأسست حوالي 1225 م . وبلغت أوج أزدهارها الحضاري والثقافي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، وسقطت في 1670 على يد الملك المغربي المنصور الذهبي ، ومملكة سنغاي الشهيرة التي امتدت عمرها ما بين سنتي 1326 — 1594 م . ومملكة الحوصا شمال نيجيريا ، وهي حديثة العهد ، اذ برزت الى الوجود في القرن السابع عشر الميلادي وسقطت تحت ضربات الاحتلال الانجليزي للمنطقة في أواخر القرن التاسع عشر ، ومملكة الكانم بورنو شمال شرق بحيرة اتشاد ، التي تأسست كسابقتها ، ولكن في القرن العاشر الميلادي ، وسقطت مثلها ، ولكن على يد المحتلين الفرنسيين ، تقريبا في نفس الوقت الذي سقطت فيه مملكة الحوصا تحت ضربات الانجليز ، ومملكة اليوروبا ، شمال نيجيريا ويعتقد كذلك

---

(1) ابن أبي الزرع : روض القرطاس ، النسخة المطبوعة بالمطبعة الحجرية ، 1303 ، فاس ص 84 — 87 .

أنها حديثة العهد ، وبقيت قائمة حتى أطاح بها المحتلون الانجليزفي نهاية القرن التاسع عشر .

ومن الامارات الافريقية الهامة التي تأسست في غرب افريقيا ، وكان لها دور في نشر الاسلام نذكر : امارات الموسي وداجونبي ، التي نشأت وسقطت في الفترة الممتدة ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر ، وامارات الكامبارا في سيغو ، وكارتا ، في شمال نيجيريا ، التي عمرت طويلا ، ولم يسقطها شيء سوى ضربات الاحتلال الفرنسي لها ، في نهاية القرن التاسع عشر .

أما في شرق القارة الافريقية ، فكما سبقت الاشارة الى ذلك ، فنجد في هذا الجزء من القارة مملكة النوبة الشهيرة ، وعاصمتها دنقلة ، الى الجنوب من مصر ، وفي عهد المعتصم العباسي زار جورج ابن ملك النوبة الشهيرة زكرياء بن يوحسن بلاط الخليفة ببغداد ، وقد أكرمه المعتصم ، وشكى له جورج عبء الفيء الذي فرضه المسلمون على بلاده ، فاستجاب المعتصم الى شكاواه واتفق معه على دفع بقلا (اتفاق) سنة واحدة كل ثلاث سنوات (1) . وفي ذلك دلالة على رأف الخلافة الاسلامية بأمصارها والأقطار التي دخلت تحت سلطانها . والى جانب مملكة النوبة ، كان هناك مملكة الفونج

(1) محمود كعت : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ص 84 ــ 87 بدون تاريخ

الاسلامية ، وعاصمتها سنار بالسودان الشرقي ، وقد امتد عمرها ما بين سنتي 1505 ــ 1820 ، حتى سقطت تحت ضربات الاحتلال الانجليزي للمنطقة كما وجدت كذلك بالسودان الشرقي مملكة تقله ، ومملكة دار فور ، التي عمرت ما بين سنتي : 1637 ــ 1875 ، وسقطت كسابقاتها تحت ضربات الاحتلال الانجليزي للبلاد ، خلال التاريخ المذكور سابقا .

ومنذ القرن التاسع عشر للميلاد انتشر الاسلام بصورة مكثفة لم يسبق لها مثيل وذلك بواسطة الفتوحات التي قام بها السودانيون أنفسهم ، في غرب افريقيا السوداء . وتوغل هؤلاء في الغابات والحشائش العالية الكثيفة ، وذلك لمعرفتهم الكافية لهذه المسالك الوعرة واطلاعهم على ما تخفيه من اسرار وأخطار . وأسلمت بواسطتهم القبائل الوثنية التي كانت متحصنة هناك . وهو ما يقودنا الى ابراز الدور الذي لعبته بعض الشخصيات الدينية السودانية في نشر الاسلام خلال القرن التاسع عشر ، في غرب افريقيا السوداء .

ــ دور بعض الشخصيات السودانية في نشر الاسلام .

من الشخصيات السودانية البارزة التي اتخذت على عاتقها نشر الاسلام في غرب افريقيا السوداء اعتقادا منها أن نشر هذا الدين الحنيف واجب من واجباتها ، تستوجبه عليها عقيدتها الراسخة ومبادؤها السمحة التي يجب نشرها بين الناس ، ومنهم

من ذهب الى حد الاعتقاد أن عدم نشر مباديء الاسلام ، من قبل المسلمين اذا ما وجدوا سبيلا الى ذلك ولم يفعلوا فهذا الاحجام نفسه «يعد أكبر الكبائر وليس بعده أو قبله كفر» .

ومن الشخصيات السودانية التي ذهبت هذا المذهب ، عثمان دان فوديو ، الذي ولد حوالي 1745 م . وقد تتلمذ على الشيخ جبريل المالكي المذهب في مدينة غدامس ، وتمكن دان فوديو من اللغة العربية تمكنا صحيحا ، الشيء الذي سمح له بالتفقه في الدين الاسلامي وفهم قواعده وعباداته ومناسكه فهما صحيحا ، كما مكنته ثقافته العالية التي أكتسبها من خلق وابداع كثير من النظريات و «التعاليم المذهبية» ، وإن كان جلها قريب جدا من الوهابية والسنوسية اللتين تأثر بهما تأثرا ملحوظا ، فهي تدل على مدى اهتمام الرجل بالأمور الاسلامية الدينية والدنيوية منها ، كما أنها تدل على ثقافته العربية الاسلامية الواسعة .

وقد وجد عثمان دان فوديو في أواخر حياته ، بعدما تقلب بين شتى المذاهب الصوفية الاسلامية ، ضالته في الطريقة القادرية فاتخذها كمذهب صوفي له ، ومن مباديء هذه الطريقة الأخيرة استوحى لجهاد في سبيل الدين الاسلامي ، ومالبث أن أعلن الجهاد ضد الزنوج الوثنيين في السودان الغربي سنة 1804 للميلاد .

ولم يحارب عثمان دان فوديو الوثنيين فحسب ، ولكن

اعتبر أيضا بعض الافارقة المسلمين الذين انحرفوا عن المباديء الصحيحة للدين الاسلامي «كفارا» ويجب محاربتهم شأنهم شأن الوثنيين حتى يرجعوا الى ماكانوا عليه قبل تفريطهم ، في الدين الاسلامي وهو الشيء الذي جعله يحارب قبائل الحوصا مدة طويلة حتى أخضعها لسنة الاسلام .

ويمكن اعتبار دان فوديو وتصنيفه بين المصلحين المسلمين في افريقيا السوداء ، وان كانت نظرياته في الاصلاح ، ونظرته اليه قد استقاهما بشكل خاص من الوهابية والسنوسية ويغلب عليهما الطابع الحربي ، لاعتقاده أنه «لا فائدة من الكلام ، والدعوة السلمية والاقناع ، أمام قوم لا يفقهون ولا يعقلون» . وذلك ما أخذ على دافوديو ، وسجله التاريخ عليه .

والى جانب الدور الهام الذي لعبه عثمان دان فوديو في بعث الاسلام في السودان فهناك شخصية أخرى سودانية لعبت دورا لا يقل أهمية عن الدور الذي لعبه هذا الأخير . وهذه الشخصية تتمثل في شخص الشيخ أحمدو ، الذي نشر الاسلام بين قبائل الفلاني واستطاع بعزيمته الفذة وإيمانه الراسخ أن يبلغ ذروة من التمكن من نشر الدين الاسلامي في غرب افريقيا .

وقد ولد الشيخ أحمدو سنة 1755 . وهو أصلا من الفلانيين أو الفلبة ، Les Peuls وكان أبوه قادريا . وأعتنق هو الأخر المذهب الصوفي القادري تأثرا بأبيه . وقد عكف أحمدو

على تعلم اللغة العربية منذ صغره ، وأصبح يضرب به المثل بين قبيلته في العلم والمعرفة الشيء الذي أهله لنيل تقدير واحترام الناس له ، في مرحلة أولى ليحظى بالقيادة والزعامة في مرحلة ثانية .

وقد استاء الشيخ أحمدو للوضعية المتدهورة التي كان يعيشها الاسلام ، الذي ارتدت عنه كثير من القبائل في غرب افريقيا ، وبعد تفكير طويل لم يجد بدا من اعلان الجهاد ضد الوثنيين في المناطق المتاخمة لحوض السينغال وحوض الفلانيين ضد قبائل المبارا وهزمها وتحدى المغاربة الذين كانوا يحتلون مدينة جني وأسس في شرق حوض السينغال عاصمة لمملكة سماها : «حمد الله» والتي يطلق عليها أحيانا اسم : «دينا» (أي المدينة المنورة) ، تبركا بها .

وتوفى الشيخ أحمدو سنة 1845 وبقيت «حمد الله» تؤدي في دورها السياسي والديني من بعده ، وذلك حتى سنة 1862 ، وهي السنة التي أحتلها فيها الحاج عمر ، الذي لعب هو أيضا دورا حاسما في توطيد ركائن الاسلام ، ومقاومة الاستعمار الفرنسي عسكريا ، في السودان الغربي .

والحاج عمر هذا ، اسمه الحقيقي عمار بن السعيد تال ، ولد بين سنتي 1794 — 1795 وتوفي في مغارة جمبري بالسينغال ، بتاريخ 12 فيفري 1865 م ، في ظروف غامضة .

ونستطيع تقسيم حياة الحاج عمر الدينية والسياسية الى

ثلاثة مراحل هامة ، كل منها يشمل ما يقرب من عشرة سنوات ، أما العشرية الأولى من حياته ، والتي تمتد بين سنتي (1837 — 1846) ، فقد أدى خلالها فريضة الحج . وفي بقاع الحجاز انضوى تحت لواء التيجانية ، ثم استقر ما يقرب من سبع سنوات في فوتا جالون الغينية ، بعد أن مكث قليلا بسكوتو .

وخلال العشرية الثانية من حياته (1846 — 1854) رجع الى مسقط رأسه في حوض السينغال وأعلن الجهاد ضد القبائل الوثنية المحلية ، وخلال هذه الفترة نفسها هاجر الى دنقراي لمدة من الزمن ، واعتزل الناس وتخلى كلية «للتأمل والتفكير في دينه ودنياه» .

أما عن العشرية الثالثة التي تنحصر بين سنتي (1854 — 1864) فتعتبر أهم مرحلة في حياة الحاج عمر الدينية والسياسية ، حيث قام خلالها بالمسيرة الكبرى التي كانت في أول الأمر نحو نيورو وحمد الله ثم السودان الغربي كله ، نحو جهاته الأربع ، حيث هزم قبائل شتى وأخضعها لسنة الاسلام منها قبائل المبارا السيغيين والوثنيين ، والفلانيين القاطنين بـ «حمد الله» . ولم يوقف حركة الحاج عمر هذه سوى الاستعمار الفرنسي ، ومات الحاج عمر عن عمر يناهز السبعين سنة .

وكان ساموري توري آخر الشخصيات الاسلامية

السودانية التي قامت بمحاولات نشر الاسلام في المنطقة ، وولا ساموری بين سنتي : (1832 ــ 1835) الميلاديتين ، في غينيا العليا ، وفي سنة 1865 م ، وعن عمر يناهز الثلاثين سنة أعلن الجهاد ضد الزنوج الوثنيين .

وقد أجتنب ساموری التشابك مع الفرنسيين قدر ما استطاع في أول أمره . وشيئا فشيئا استطاع توحيد بلاد المندونغ في المناطق الممتدة بين النيجر الأعلى ، وسيكاسر . وتوغل في الغابات الكثيفة فاتحا ، وأدخل مجموعات هامة من الوثنيين الأفارقة في الاسلام تحت حكمه . وقد أقلقت توسعاته هذه الاستعمار الفرنسي في السودان الغربي ، وبات التصادم معه أمرا محتما ، ودخل ساموری مع الاستعمار الفرنسي في معارك طاحنة دامت أكثر من سبع سنوات (1891 ــ 1898) ، وهو الشيء الذي اضطر ساموری للتحرك باستمرار ، والاتجاه نحو الشرق ، أي نحو فولتا العليا .

وأخيرا ألقى الفرنسيون القبض عليه 1898 ونقلوه الى الغابون ، وتوفى هناك سنة 1900 في ظروف سيئة للغاية ولا ندري اذا كان ساموری قد مات ميتة طبيعية في سجنه ، أم اغتالته أيدي الخيانة والغدر .

ومن هنا تتضح المساهمة الفعالة التي بادرت بها هذه الشخصيات السودانية الاسلامية في نشر الدين الاسلامي خاصة ، والثقافة العربية عامة في غرب افريقيا السوداء ، كما

يتضح لنا جليا أن المد الاستعماري الفرنسي الحديث الذي اجتاح المنطقة قد شكل عائقا هاما أمام نشاط هذه الشخصيات الاسلامية في غرب افريقيا وحال في كثير من الأحيان دون بلوغ هذه الأخيرة أهدافها ومساعيها ، التي كانت تهدف بالدرجة الأولى الى نشر الاسلام والثقافة العربية في المنطقة ، علما أن الفكرة الرائجة بين المؤرخين الفرنسيين ، هي أن العرب هم الذين فرضوا دينهم بالحديد والنار على الجماعات الافريقية . والأغرب من ذلك أن بعض الدارسين العرب لتاريخ افريقيا السوداء تبنوا هذه الفكرة وزادوها ترويجا وذلك على عكس بعض المؤرخين الغربيين أمثال جان رووفيلار ومنتوزير وغيرهم من الذين يؤكدون من خلال كتاباتهم بأن العرب نشروا دينهم في افريقيا السوداء بطريقة سلمية لا مجال للعنف فيها ، بل عمل المسلمون على جعل الاسلام أداة لينة وطيعة تتلاءم وأوضاع الزنوج الوثنيين الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والسياسية ، وذلك باستثناء ما قام به المرابطون في القرن الحادي عشر الميلادي من نشاط عسكري طفيف في المنطقة .

وخلاصة القول ، نستطيع أن نقول دون أن نخشى أي خطأ ، أن نشر الاسلام في افريقيا الغربية السوداء خلال القرون الحديثة ، وخاصة منها القرن التاسع عشر الميلادي ، مدين بالكثير للزعماء السودانيين أمثال عثمان دان فوديو ، والشيخ أحمدو، والحاج عمر ، وساموري توري والأولى بنا أن نقول ،

بالنظر للواقع التاريخي الذي مر به الاسلام في المنطقة : «أن السودانيين أنفسهم هم الذين أخضعوا الجماعات الافريقية الوثنية بالقوة وادخلوها تحت راية الاسلام وذلك من باب الغيرة عليه والتحمس له» .

ـ حالة الاسلام في افريقيا السوداء :

لقد سبق أن أشرنا بأن المسيحية أقدم من الاسلام في افريقيا السوداء ، بل في افريقيا عامة ، غير أن هذا التفاوت الزمني بين الاسلام والمسيحية لم يمنع الاسلام أن يحتل الصدارة بين الديانات الموجودة في القارة السمراء ، منها المسيحية بفرعيها الرئيسيين الكاتوليكي والبروتستانتي والديانات الوثنية الموروثة التي توطدت أركانها في البلاد قبل دخول الاسلام بكثير .

ويتوزع المسلمون عبر القارة السمراء على النحو التالي :

جدول توزيع المسلمين في افريقيا السوداء .

اسم البلد	تعداد السكان	نسبة المسلمين
السودان	10.000.000	% 83
الجمهورية العربية الصحراوية	800.000	%100
موريتانيا	1.000.000	%100
الصومال	2.077.000	% 99
بروتيريا	2.240.000	% 87
الحبشة	13.000.000	% 65
السينغال	2.500.000	% 95

اسم البلد	عدد التلاميذ	نسبة المسلمين
مـالـي	3.870.000	% 90
غينيـا	3.200.000	% 90
التشـــاد	2.700.000	% 90
النيجر	2.150.000	% 85
نيجيـريا	42.000.000	% 75
تنجانيقا	4.780.000	% 50
زنجيبـــار	320.000	%100
غامبيا	2.240.000	% 85
فولتا العليا	2.420.000	% 55
ساحل العاج	1.820.000	% 55
الداهومي	1.130.000	% 55
الكاميرون	264.000	% 55
سيراليون	1.350.000	% 55
التـوغـو	825.000	% 55
افريقيا الوسطى	750.000	% 60
الغـابـون	246.000	% 55

وكما نلاحظ من خلال الجدول السابق ، فإن أكثرية سكان افريقيا السوداء من المسلمين هذا زيادة على أن الاسلام ينتشر فيها بسرعة فائقة ، وحركة انتشاره لم تتوقف حتى يومنا هذا . واذا كانت هذه هي أعداد المسلمين ونسبتهم في إفريقيا السوداء في الستينات من القرن الحالي فبدون شك ، في أيامنا هذه تكون هذه النسبة وتعداد المسلمين معا قد تغيرا زيادة ،

ذلك لأن كثيرا من المختصين في الدراسات الاسلامية ، وعلماء الاجتماع يؤكدون على أن مستقبل افريقيا السوداء يكمن في إسلامها . وكل شيء يدل على ذلك . وفي هذا المجال يقول الأب بوشو : «مهما تكن السرعة التي انتشرت بها المسيحية في إفريقيا فالاسلام فاتها في ذلك بكثير ففي إفريقيا الغربية وحدها يوجد ما يقرب من 10 ملايين من المسلمين بينما لا يقابل هذا العدد من المسيحيين سوى 800.000 نسمة ، وعموما فثلث (3/4) إفريقيا السوداء مسلمون ...» .

ويتقدم الاسلام تقدما عملاقا في جميع انحاء إفريقيا السوداء حيث يدخل الاسلام في بعض مناطقها ما يقرب من 10.000 نسمة سنويا . ويقول عن ذلك أحدهم مايلي : «ان هذه الأعداد (يقصد 10.000 نسمة من الأفارقة الذين يدخلون الاسلام سنويا) ... تعطينا فكرة صحيحة عن تطور مؤثرات الاسلام ، حتى ولو كانت هذه المؤثرات تافهة ، فهي كافية غالبا بأن تقف ضد المسيحية وتقطع الطريق أمامها في إفريقيا السوداء .» .

أما في بعض مناطق السودان الغربي فقد تضاعف عدد المسلمين بين سنتي 1936 — 1950 ، ففي السنة الأولى كان عدد المسلمين في مالي مثلا 300.000 نسمة فقفز هذا العدد ليصبح 600.000 نسمة خلال السنة الثانية ، وذلك في سبع

دوائر وثينة تعتبر من أقدم المناطق تعصبا لعاداتها ، وتقاليدها الموروثة (1) .

ويذكر السيد/ فانسان مونتاي (V. MOMTEUIL) أنه خلال سنة 1959 ، في السينغال ، دخلت الاسلام قرية مسيحية برمتها ، ودفعة واحدة أعلنت اسلامها ، زيادة على أن هناك في البلاد قرى اسلامية بحتة ، وذلك مثل قرية الكازامانس (La Casamance) ، بل منطقة الكازامانس كلها ، هكذا على حد تعبير الكاتب .(2) .

وانطلاقا من هذه المعطيات فإن المستقبل بدون شك في القارة السمراء سيكون مستقبل الاسلام وبالتالي مستقبل الثقافة العربية الاسلامية ، واللغة العربية وغيرها من العوامل الحضارية التي ستنجر بالضرورة وراء الدين الاسلامي .(3) .

ومهما كانت النتائج التي حصل عليها التبشير الحديث في افريقيا السوداء ، في وقت كانت فيه الأراء متذبذبة والأفكار

---

(1) خلال الستينات من هذا القرن .

(2) محمود شاكر : العالم الاسلامي ومحاولات السيطرة عليه القاهرة 1967 ص 36 — 37

(3) احصاءات 1967 ، تعتبر هذه الأخيرة تقريبية ، لأن الاستعمار الأوربي ينقص من عدد المسلمين حتى يسيطر المسيحيون على دفة الحكم ، وهؤلاء بدورهم ينقصون من عدد المسلمين أيضا لكي يبقوا الحكم ، أما السكان فيبالغون أيضا فيما يخص نسبة المسلمين ، لذلك أخذنا تقريبا العدد الوسطى والأعداد التي يمكن الاطمئنان إليها «محمود شاكر المرجع نفسه» .

خاملة بالاضافة الى الفراغ الثقافي الذي ساد القارة ، والذي عمل لصالحه ، فان الضرورة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، بل حتى السياسية ، قد تغيرت اليوم في قارتنا السمراء . والمستقبل وحده كفيل ليبرهن لكل مغتصب جبار عن خيبة ظنه وعدم جدوى مخططاته مهما بلغت هذه من عبقرية في المكر والخداع والبقاء للأصلاح .

الفصـــل الثانـــي

الطرق الصوفية ونشر الثقافة العربية الاسلامية في افريقيا السوداء

ــ انتشار الثقافة العربية

من الحقائق التاريخية التي لا ريب فيها ، أن انتشار الثقافة العربية الاسلامية في افريقيا كان مسايرا لانتشار الاسلام (1) ، وليس العكس ، كما يدعي ذلك بعض الكتاب الغربيين الذين يفرقون بين انتشار الاسلام وحضارته ، ولا يَعْتَرِفُونَ بتواكب دين العرب وحضارتهم في افريقيا ، ومن ثمة ذهب بعضهم الى تقديم العامل الديني عن العامل الحضاري ، من حيث الانتشار والتأثير في الجماعات الافريقية الزنجية التي حسب رأي هؤلاء ــ «لم تتأثر بحضارة هذا الدين الا بعد مضي وقت كبير على اعتناقها له» . وهناك فريق آخر ذهب عكس هذه النظرية

(1) ROUX L'islam en Occident Paris 1959 P413

وقدم العامل الحضاري على العامل الديني ، بل هناك من «يشك في تماشي هذين العاملين معا» واعتبروا خطأ ان الاسلام يسير في «واد» وحضارته في «واد» آخر ، بينما الحقيقة ليست ذلك تماما ، اذ هناك كثير من الشواهد التاريخية والحقائق الساطعة التي تثبت مواكبة دين العرب لحضارتهم وتماشيهما جنبا الى جنب وتأثيرهما تقريبا بدرجة واحدة في الجماعات الافريقية على مختلف أنماطها ومستوياتها .

لما دخل الاسلام المنطقة اعتنقه أهل البلاد على مستويات مختلفة ، بحيث تمكنت الطبقات الحاكمة والعائلات الكبيرة ، والعلماء من أستيعاب مباديء الدين الاسلامي . وذلك باحتكاكها بالعرب الذين قدموا الى القارة في فترات زمنية مختلفة وباختلاف هؤلاء ، من حيث تكوينهم ، وثقافتهم وتفقههم الدين اختلف تأثيرهم في الجماعات الافريقية الوثنية .

أما العامة فبقيت متمسكة بعاداتها وتقاليدها ، وحياتها الفكرية ولم يؤثر الاسلام فيها تأثيرا جذريا في باديء الأمر . (1)

وقد لعب التجار المسلمون دورا هاما في نشر الثقافة العربية الاسلامية في افريقيا السوداء اذ كان التاجر المسلم داعية الى الاسلام ، وبالتالي الى الثقافة العربية الاسلامية أينما حل اعتقادا منه أن نشر الاسلام واجب من واجباته الروحية ، الشيء الذي لم يتوفر لدى عامة المسيحيين وتجار أوربا ، الذين يرجع

(1) عبد القادر زبادية : المرجع السابق ص 154

اتصالهم بغربي القارة السمراء مثلا الى سنة 1368 ، وهي السنة التي استطاع خلالها الفرنسيون ارساء قواعد تجارية هامة بالقرب من هضبة دكار الحالية واكتشفوا بسرعة خصوبة الأراضي السواحلية في المنطقة ، فاستغلوها استغلالا بشعا ، وجنوا منها ارباحا معتبرة بسهولة تامة وهو ما جعلهم يسارعون الى انشاء مراكز تجارية امتدت من الرأس الأخضر الى خليج غينيا .

اذن يرجع اتصال الأوربيين بسواحل غرب افريقيا الى النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي ، وليس الى القرن السادس عشر كما «تؤكد» عليه جل الكتب المدرسية وغيرها من الكتابات التي أهتمت بتاريخ علاقة أوربا بالقارة الافريقية .

وما يهمنا من ذلك هو أنه على عكس العربي المسلم الذي جمع بين دينه ودنياه ، واعتبرهما شيئين مكملين لبعضهما البعض لا ينفصلان مهما كانت الحيثيات الزمنية والمكانية التي وجد فيها ، فالمسيحيون الأوربيون كأفراد أو كجماعات — لم يعيروا الجانب الروحي أي أهتمام يذكر ، وأعبر أن نشر الدين المسيحي بين الجماعات الافريقية الوثنية ليس من مهامهم ، وبذلك تأخر كثيرا ظهور المسيحية في غرب افريقيا ، مقارنة بظهور الاسلام في المنطقة الذي صاحب ظهور التجار المسلمين ، الذي يعود تاريخيه الى القرن الأول الهجري ، السابع ميلادي .

ولم تظهر المسيحية في هذا الجزء من القارة ، الا بعد أن اهتمت أوربا الرسمية بهذا الجانب ، وسخرته لخدمة مآربها الاستعمارية وذلك في بداية القرن السابع عشر الميلادي .

ومن طبيعة التجارة أن أوصلت التاجر المسلم بالافراد الأفارقة الذين كان يتعامل معهم وربطت بينه وبين المجتمعات الافريقية صلات وثيقة مباشرة .

ـ تأثير الفرد المسلم في الزنوج الوثنيين :

بحكم إحتكاكهم المتواصل بالأفراد المسلمين لأغراض تجارية تأثر الزنوج الوثنيون بمظاهر المسلمين الخارجية التي تتمثل في ملبسهم النظيف ، وسلوكهم اليومي ، وغير ذلك من المظاهر التي اثارت إهتمام الزنجي الوثني ،(1) الذي كان يعيش عيشة هي أقرب من عيشة الحيوان للانسان على حد تعبير ابن خلدون وذلك باستثناء أهل الحبشة ومالي وكوكو والتكرور .

ـ وقد قامت المساجد بدور كبير في نشر الثقافة العربية في القارة السوداء . وسبق أن أشرنا الى مدى اهتمام الأفارقة باقامة المساجد وما يتبعها من مؤسسات ثقافية ، وغيرها كالمدرسة القرآنية وبيوت الضيافة لعابرى السبيل وللمدعوين اليها الخ . .

وقد كان المسجد يخصص أوقاتا للتدريس على مختلف أنواعه وطرقه ، إضافة الى تدريس القرآن الكريم وهكذا جمع

(1) نعيم قداح : افريقيا الغربية في ظل الاسلام ، دمشق 1960 ص 24

المسجد بين الثقافة والدين ، وبين تغذية كل من الجسد والروح في وقت واحد شأنه شأن المساجد الأخرى التي وجدت في البلدان العربية الاسلامية ولا تزال المساجد ، كما هو معروف تحافظ حتى يومنا هذا على تقاليدها الدينية والثقافية بل تبلور هذا الدور وأضحى بارزا جليا في ايامنا هذه ، أكثر من أي وقت مضى .

ومما ساعد على انتشار الثقافة العربية الاسلامية في افريقيا السوداء ، انه كان على كل فرد افريقي دخل الاسلام أن يتعلم ولو قسطا بسيطا من اللغة العربية يمكنه من أداء فرائضه الدينية .

عندما أسلم الأفارقة الزنوج وتشبعوا بالثقافة العربية الاسلامية لم يهملوا ثقافتهم وتقاليدهم الموروثة بل قاموا بنوع من الملاءمة بين تقاليدهم المحلية الموروثة والثقافة العربية الاسلامية المكتسبة . ويتجلى ذلك بالأخص في بعض مظاهر الحياة في السلطنات الاسلامية التي قامت في غرب افريقيا ، مثل سلطنة غانا ومالي وغيرها (1) .

---

(1) مقدمة ابن خلدون ط/2 بيروت 1961 ، ص 93 ، 142 .
ـــ يقول ابن خلدون بعد ذكر سلا والتكرور وغانا فيذكر قوم الملم قائلا عنهم : «وليس في ورائهم في الجنوب عمران يعتبر الا أناس أقرب الى الحيوان العجم من المناطق ، يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة ، وربما يأكل بعضهم البعض وليسوا في عداد البشر .. وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا ، فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة ..»

كما يظهر هذا الاختلاط بين الثقافتين الاسلامية والافريقية في ميدان القضاء والتشريع وفي لباس السلاطين وكيفية جلوسهم للبت في المشاكل الاجتماعية (1) .

وتجسدت الهندسة الاسلامية في افريقيا بقدم الاسلام في القارة ، ويتجلى ذلك واضحا في المراكز الكبرى الاسلامية مثل تمبوكتو وجني وغاوو . ويبدو إنتشار الثقافة الاسلامية في افريقيا بين أهل البلاد في كل مظاهر حياتهم ، منها مظهر اللباس ، كارتداء الشاش والبرانيس ، والأحذية (2) وغيرها من أنواع الألبسة التي يجلبها الأفارقة من البلدان الاسلامية المجاورة لهم كالجزائر وليبيا وتونس والمغرب ومصر وغيرها ، أو يجلبونها من البقاع المقدسة عندما يؤدون فريضة الحج . (3) .

---

(1) القلقسندي أبو العباس أحمد : صبح الاعش القاهرة 1913 ــ 1917 ، ج 5 ، ص 278 «كان الافريقي قديما يرتدي قبعة مصنوعة من الديس أو غيره من نبات الغابة ثم عوضها بالشاش الذي أصبح مظهرا من مظاهر المجتمع في غرب افريقيا والفرد الزنجي فخور به ولا يتخلى عنه أبدا» (نعيم قداح المرجع السابق) .

(2) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص 690 وما بعدها .

(3) كانت الاحذية الافريقية المحلية تصنع بقطع من الجلد وتعد خصيصا لحفظ الجهة السفلى من الرجل بينما يبقى الجزء الأعلى منها عاريا ، أما بعد انتشار الثقافة الاسلامية في القارة تخلت الاحذية المحلية عن مكانتها للبلغة المغربية التي راج استعمالها في الأوساط الافريقية شأنها شأن القفاطين والبرانيس وغيرها من الالبسة التي يأتي بها الحجيج عندما يمرون بالدار البيضاء أو فاس أو غيرهما من مدن المغرب .

وقد كان للمراكز الثقافية الاسلامية التي قامت في غرب افريقيا دور هام في نشر الثقافة العربية الاسلامية في القارة السوداء . ومن أهم هذه المراكز : تمبوكتو ، جني ، وغاوو .

ـــ التقاء الحضارتين العربية والاسلامية :

كثيرا ما تكلم الكتاب وخاصة منهم العرب ، على التحام الحضارتين العربية الافريقية ولكن دون أن يثبتوا مصادر أقوالهم ، أو يعطوا عن ذلك نماذج محسوسة مستمدة من الواقع التاريخي للقارة السمراء . وليس لدينا من شواهد على ذلك سوى الحفريات الأثرية التي قام بها بعض الأوربيين المختصين في هذا المجال .

تعود الحفريات الأثرية الأولى في الجزء الغربي من القارة السمراء الى سنتي 1913 ـــ 1914 . وقد قام بهذه الحفريات الأثرية الفرنسي بونال دوميزيار (1) . ثم قام السيد لازرتيبيق بحفريات أثرية مشابهة للأولى في المنطقة في سنة 1939 . وقام السيد توماساي بحفريات أثرية في الجنوب الموريتاني بين سنتي 1949 ـــ 1951 م ، وفي السنة الأخيرة اكتشف كومبي صالح . وهي عاصمة مملكة غانا القديمة .

ثم قام السيدان موني وسيموسكي هما الآخران بحفريات أثرية في المنطقة ، لم تكشف عن شيء جديد بالنسبة لتاريخ

(1) A GOUILLY : OP, Cit PP 202 à 229

القارة . ولكن في سنة 1960 اكتشف السيد جان دوفيس أثار مدينة تغداووست ، وهي أحد المراكز الاسلامية القديمة في غرب افريقيا .

وقد أثبتت الشواهد المادية لكل من كومبي صالح وتغداووست ، أنها تعطينا معلومات أثرية هامة على الفترة الممتدة ما بين القرنين السابع والثالث عشر الميلاديين ، وهي الفترة التي عرفت خلالها الحضارة العربية البربرية من جهة والحضارة الزنجية من جهة أخرى تلاحما ملحوظا .

ومنذ التقاء الحضارتين العربية والافريقية أثرت الأولى في الثانية تأثيرا ملحوظا ، ذلك لأن حظ الأولى في استيعاب العوامل الحضارية وتطويرها بكيفية تتماشى وميولها وطموحها ، كان أكثر من الثانية .

— ولوع الأفارقة بالثقافة العربية وميلهم اليها :

بقدر ما كان اهتمام الأفارقة بالدين الاسلامي كبيرا ، كان أيضا اهتمامهم بحضارته وثقافته كبيرا ، ولا نريد شاهدا على ذلك سوى بروز عدة شخصيات ثقافية افريقية في هذه الثقافة التي نافست بانتاجها الثقافي المثقفين العرب في العواصم العربية ، منبع هذه الثقافة واحتلوا فيما بينهم مكانة مرموقة علميا وثقافيا وحظي الكثير منهم بتقدير واحترام المثقفين العرب لهم .

ويكفينا هنا أن نذكر المؤرخين السودانيين الشهيرين

القاضي محمود كعت (1) وعبد الرحمن السعدي (2) اللذين كان لكل منهما أعمال معتبرة تذكر في المجالين العلمي والثقافي العربيين في غرب افريقيا السوداء .

أما في القرن التاسع عشر الميلادي فقد ظهر كثير من الكتاب والمؤلفين الأفارقة الذين تمكنوا في اللغة العربية وألفوا بها في شتى مجالات العلم والمعرفة ، منهم سليمان السرموكي ، الذي كانت له محاوَلات شعرية طيبة ، كما يبدو مما كتبه ، أنه كان متضلعا في الرياضيات وعلم الفلك ، وله محاولات في الميدان الأول تستحق الذكر وبعض مؤلفات السرموكي في الفقه والرياضيات والأدب لا تزال محفوظة حتى الآن في خزائن الأرشيف منها تأليف تحت عنوان : «أجنحة الراغب في معرفة الحساب» . وهذا التأليف عبارة عن قصيدة شعرية تتألف من 47 بيتاً ، مشروحة شرحا كافيا ، تحمل تاريخ 1308 هـ . الموافق لـ : 1909 م. .

ومن المثقفين الأفارقة الذين اهتموا بعلوم : القرآن والتفسير والفقه نذكر محمد الأمين بن أحمد ريدان الحكني ، الذي له تأليف مختصر تحت عنوان : «مراقي السعود المبتغي الرقي والصعود» ، كما كان لسعد بن ابراهيم بن عبد الله الفلاني ،

---

(1) القاضي محمود كعت : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، باريس 1964 .

(2) عبد الرحمان السعدي : تاريخ السودان أنجي 1898 (323ص)

نسبة الى قبائل الفلبة ، في السينغال ، اهتمام كبير بالشعر والشعراء العرب . وقد احتفظت له خزائن الأرشيف بعدة قصائد شعرية ألفها في نهاية القرن الماضي ومن مؤلفاته العلمية نذكر فاتحة التصريف (1) الذي يتضح من عنوانه أنه مؤلف نحوي لغوي ، الذي يشتمل على فصل في أحوال الأفعال ، فصل في الفعل الصحيح والمهموز ، والمثال ، والأجوف ، وفصل في فعل اللفيف ، والمنقوص والمضاعف . والمكسور الخ .. .

ومن الأدباء الأفارقة الذين أنتجوا «الملاحم» الشعرية : الباقي ابن الأمين ، الذي لا تزال تحتفظ له خزائن الأرشيف بعدة مؤلفات في شتى ميادين العلوم الاسلامية منهاملحمة شعرية له تحت عنوان : «دليل عابر السبيل والتي تتألف من 213 بيتاً شعرياً وتتجزء الى عدة أبواب ، يطول ذكرها هنا ، وأهمها مقدمة في حقوق الزوجين (25 بيتا) ، فوائد الجماعة وقت الجوع (21 بيتا) ، باب أداب حالة الاتيان (33 بيتا) باب في آداب حالة الجماعة (21 بيتا) ، باب في العدل بين الزوجات (27 بيتا) علامة غش المرأة (44 بيتا) الخ .. .

ومن العلماء الأفارقة الذين كان لهم ضلع في العلوم الشرعية والمعارف الدينية عامة وعلم الفقه خاصة الشيخ سليمان بن شعيب بن الأخضر البحيري ، الذي يبدو أنه كان في هذا

(1) يقول المؤلف عن عنوان تأليفته : سميته فاتحة التصريف أرجو به اللطف من اللطيف وان يكون نافعا مقبولا منور بنور المعقول

الميدان عالما من الأعلام العصر . ومن مؤلفاته نذكر (1) . «أوضح المسالك» الذي يتكون من جزئين ، الجزء الأول يضم 118 ورقة أما الجزء الثاني فيتألف من 92 ورقة ، وهو شرح واف لمختصر عبد الرحمن بن محمد ، المعروف بإبن عسكر : (المسالك الى مذهب مالك) . ويقول المؤلف عن تأليفه : هذا مايلي : «التمس مني جماعة من الاخوان أن أكتب عليه شرحا (يقصد مؤلف ابن عسكر) يبين حقائقه ويوضح دقائقه ويذلل صعابه ويكشف عن الوجه المغلق نقابه ، غير مختصر اختصارا يؤدي الى الاخلال ...» وقد قسم المؤلف الجزء الأول من كتابه هذا الى 12 فصلا أولها فصل فرائض الوضوء وآخرها كتاب الطلاق . أما الجزء الثاني من كتابه هذا فيتكون من 15 فصلا أولها كتاب البيوع وآخرها كتاب الجامع .

وبين المخطوطات الافريقية التي كتبت في الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي ، نجد مخطوطا هاما في علم الفقه لعبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي ، يتألف من 21 ورقة ، كل ورقة تحتوي على حوالي 24 سطرا ، وعنوان هذا التأليف هو : «روضة النسرين ...» وقد انتهى من كتابته صاحبه سنة 1201 هـ الموافق لـ : 1787 م .

---

(1) لا يستبعد أن يكون هو نفسه أو أبوه أصلا من الجزائر أو المغرب ، ولكنه عاش ومات في السودان الغربي ومخطوطه موجود بين المخطوطات السودانية (غرب افريقيا) .

وقد أثنى كثير من المؤلفين الغربيين على إنتاج الأفارقة باللغة العربية ، منهم السيد شاربونو (CHARBONNEAU) في دراسة له لتطور الثقافة العربية في السودان الغربي وقد استند السيد شاربونو أساسا على كتاب تكمله الديباج لأحمد بابا التمبوكني ــ وانتهى الى نتائج هامة . منها أنه أبدى اعجابه ودهشته الشديدين بتطور الثقافة العربية في المنطقة ، ويذكر شاربونو ما يقرب من 17 عالما عاشوا بين القرنين الثالث عشر ، وكان جلهم قد تعلم في مكة و المدينة و القاهرة . وينوه المؤلف بالمستوى الثقافي العالمي الذي اتسم به هؤلاء العلماء السودانيون ، مشيرا في نفس الوقت الى الخدمات الثقافية التي يقدمونها للحضارة العربية الاسلامية في المنطقة ويعطي السيد شاربونو نماذج مخطوطه عن مؤلفاتكم ، وهي في أحسن الروعة الأدبية والدقة اللغوية والذوق الفني .

تنافس المثقفون الأفارقة لأكتساب مختلف المعارف باللغة العربية وقد كانت العربية هي المحرك الأساسي بعد الدين الاسلامي للمرابطين وأصحاب الطرق الصوفية الذين ساد بينهم تنافس حاد في التمكن من العربية من جهة وفي نشرها بين الجماهير الشعبية من جهة أخرى .

وقد درس السيدان بيفار (BIVARS) وأسكيت (HISKET) تطور الأدب العربي في نجيريا في القرن التاسع عشر ، وأبديا اعجابهما بما وصل اليه الأدب العربي على يد

الأفارقة من تطور خلال القرن المذكور . وذكر المؤلفان عدة أفارقة اشتهروا بانتاجهم الأدبي في نيجريا ، وذلك مثل البلبعي ودان مرينا ، ودان مسانيح ، وجبريل دغاديس وغيرهم من الأفارقة الذين اشتهروا في ميدان الأدب العربي خلال القرن الماضي .

وقد ذكرت بعض المصادر أن هناك عددا هائلا من الموظفين الأفارقة في الادارة الفرنسية (مناطق المستعمرات الفرنسية في غرب افريقيا) ، الذين تثقفوا ثقافة فرنسية بحتة ، ثم عادوا الى الكتاتيب القرآنية للنظر في تربيتهم الدينية . وفي هذا المجال يقول أحد الكتاب الفرنسيين «.. ومهما بحثنا في أوساط المجتمعات في افريقيا الغربية ، لا نجد عندها أدنى رغبة في التوجه الى الثقافة الغربية» .

وقد لعب الأفارقة الذين تخرجوا من الأزهر دورا هاما في نشر الثقافة العربية ولغتها بين الجماهير الشعبية . ولأهمية أعداد الطلبة السودانيين الذين كانوا يلتحقون بالأزهر لمزاولة تعليمهم خصص لهم رواق عرف برواق التكرور في جامعة الأزهر بمصر .

وفي مدينة سيغو أنشأ أحد الشبان المتخرجين من الأزهر مدرسة ابتدائية ، كان يذهب اليها في نهاية الربع الأول من هذا القرن حوالي 125 تلميذا ، وبعد بضع سنوات اندهش الأوربيون عندما سمعوا بعض الشبان الأفارقة يتكلمون اللغة العربية في احدى طرقات حي ماجندى بسيغو .

ـــ مواقف الاستعمار الفرنسي من الثقافة العربية في غرب افريقيا :

يتفق جل الباحثين الأوربيين والعرب منهم ، على الرغبة الكبيرة التي تحدوا الأفارقة الزنوج في الانتماء الى الحضارة العربية الاسلامية ، التي أحتكوا بها وعرفوها منذ أزمنة بعيدة ، ولكن الاستعمار الأوربي الذي تعرضت له افريقيا ، كان من بين العوامل الهامة التي حالت دون تطور وانتشار ثقافة العرب في القارة ، بالشكل الذي كان ينتظر أن يتم به هذا التطور والانتشار .

وقد حمل الاستعمار الأوربي الى افريقيا مظهرين استعماريين في أشد الخطورة ، وهما : اللغة الأروبية والديانة المسيحية ، ولم يدخر الاستعمار الأوربي جهدا لتدعيم ركائزهما في افريقيا .

وقد عمد الاستعمار الفرنسي ، في المناطق التي كانت خاضعة له في غرب افريقيا ، الى تكوين «نخبة» افريقية موالية له فكرا ولغة وعقيدة ، ولم يجد من وسائل لبلوغ أهدافه سوى استعمال اللغة الفرنسية والديانة المسيحية . وحصر الاستعمار الفرنسي مجالات التعليم في ميادين معينة ، ولم يسمح للأفارقة الا بقدر ضئيل من الثقافة كيفه حسب أهدافه الاستعمارية التي رأت في انتشار الثقافة العربية الاسلامية في هذا الجزء من القارة خطرا يهدد وجودها في المنطقة فوقفت ادارة الاحتلال موقفا مناوئا

منها ، ولم تخل عقلية ضباطها العسكريين الذين شاركوا في احتلال المنطقة ، أو حكموها بعد ذلك من الروح الصليبية .

وفي عهد الجمهورية الثالثة برزت الى الوجود فكرة «تثقيف» الشبيبة الاسلامية الافريقية ثقافة عربية اسلامية تتماشى وعقيدتها الاسلامية وثقافتها العربية ، وقد دعى الى هذه الفكرة فريق من الليبراليين الفرنسيين ، الذين اعتقدوا أن هذا «الاتجاه» هو أحسن طريقة لضمان المصالح الفرنسية في افريقيا السوداء . ولكن هذا الفريق كان قلة قليلة من حيث أعضاؤه اذا قارنناه بالعدد الاجمالي للبرلمانيين الفرنسيين ، الذين وقف جلهم ضد هذه الفكرة ، مما حال دون تطبيقها .

ولم تفق فرنسا الرسمية عند هذا الحد ، بل تجاوزته الى حد اتخاذ اجراءات صارمة لنشر لغتها وثقافتها في غرب افريقيا ، من ذلك أنها قررت ابعاد كل «منافس» لثقافتها ولغتها ، والمقصود «بالمنافس» هنا هي الثقافة العربية الاسلامية ولغتها ، وتطبيقا لهذه السياسة الأخيرة عمدت الادارة الفرنسية الى الغاء كل المناصب الادارية التي كانت تستعمل فيها ، واقتصرت الوظائف في ادارتها على الأفارقة المتعلمين بلغتها ، دون سواهم ، ومن ثم ظهر بعض التراجع بين المثقفين الأفارقة باللغة العربية ، خاصة في ترجيه ابنائهم الى تعلم اللغة الفرنسية . «لغة الخبز» وان لم يهملوا بشكل تام اللغة العربية ، وذلك حتى فترة زمنية محددة .

اذن يرجع اهتمام الأفارقة في المستعمرات الفرنسية القديمة

باللغة الفرنسية وثقافتها ، وذلك على حساب اللغة العربية وثقافتها ، الى فرض اللغة الأولى من قبل أصحابها على أهل البلاد ، زيادة على أن هؤلاء نظروا الى اللغة الفرنسية نظرة مادية محطة، لا لشيء ولكن لأنها كانت تضمن لمتعلميها معيشتهم .

حقا كانت اللغة الفرنسية وثقافتها في كافة المستعمرات الفرنسية في افريقيا من الوسائل الهامة لقهر الجوع وابعاد شبح الفقر والمرض المدقع على النفوس ، بالنسبة لكثير من الأفارقة الذين قرروا دراسة واتقان هذه اللغة وثقافتها .

وهو ما أدركه الاستعمار الفرنسي في افريقيا واستغله أحسن استغلال ، واذا كانت مساعيه الاستعمارية القديمة قد برهنت التجربة على فشلها ، وعدم تماشيها مع الحداثة والعصرنة التي شاهدها النصف الثاني من القرن الحالي ، فإنه نجح في مساعيه الحديثة ، التي وضع لها أسسها الأولى منذ قرن ونصف من الزمن ، وحقق نجاحا باهرا ، لا يشهد عليه سوى خضوع الأغلبية من الأفارقة التي تدين بالاسلام الى أقلية مسيحية .

ـ انتشار اللغة العربية :

هناك كثير من الحقائق التاريخية التي تتعلق بالحضارة العربية عامة في افريقيا السوداء لا تزال محل نقاش ، بل يسودها الغموض والابهام وتكاد تكون غير معروفة البتة ، ولم تسلط عليها الأضواء بطريقة أو بأخرى ، ولم تنتبه اليها الأقلام العربية . وبما أن هذه القضية عربية فأنها بالتالي تحتاج الى المعالجة بأقلام عربية .

واذا كان أمر الدين مثلا في القارة السمراء معروفا نسبيا من قبل الجماهير العربية فأمر انتشار اللغة العربية في هذه القارة ليس معروفا على الاطلاق .

لقد سادت اللغة العربية القارة السمراء منذ أن دخلت هذه الأخيرة في رحاب الاسلام ، أي منذ القرن الأول الهجري ، السابع الميلادي ، وأنتشرت اللغة العربية بانتشار الاسلام في القارة ، ذلك لأن الضرورة تقتضي بأنه على كل فرد افريقي دخل الاسلام ، أن يتعلم ولو قسطا زهيدا من لغة القرآن لتأدية فرائضه الدينية ، ومن ثمة توطدت أركان العربية في القارة السمراء تدريجيا الى أن بلغت أوج انتشارها بنهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن .

وقد يكون العامل الديني وحده ليس كافيا لتحليل انتشار اللغة العربية في افريقيا السوداء بل هذا الانتشار يمكن تعليله بعوامل كثيرة متظافرة ومكملة لبعضها البعض .

ويأتي على رأس هذه العوامل التي ساعدت على انتشار العربية في القارة السمراء ، عدم جواز ترجمة القرآن وكتابته بغير اللغة التي نزل بها ، فضلا عن عدم جواز القراءة بغير العربية في الصلاة .

ويعلل بعضهم ظاهرة انتشار العربية في افريقيا السوداء بالقرابة التي توجد بينها وبين اللغات السامية الأخرى في كثير من المظاهر الصوتية واللفظية والنحوية . زيادة على أن هناك إجماعا

بين علماء اللغات على التشابه الموجود بين اللغات السامية والحامية (1) بل هناك دراسات حديثة عربية وأوربية تثبت اثباتا قاطعا خطأ استعمال المصطلحين (سامي) و (حامي) وتصر على استبدالهما بـ «عربي» ، لأنه في نظر هؤلاء الباحثين ، أصل الساميين والحاميين . واحد ، منبثق من أصل واحد ، الذي هو الأصل العربي .(2) .

أما العامل الحضاري فقد لعب دورا رئيسيا في نشر اللغة العربية في افريقيا السوداء ، ذلك لأن قصر اللغات المحلية في افريقيا قبل وصول الاسلام اليها ، عن استيعاب المفاهيم الحضارية المختلفة كان من بين الأسباب الهامة التي فتحت الطريق أمام انتشار العربية في القارة .(3) .

كما أن ظهور الأمبراطوريات الاسلامية الافريقية القديمة مثل مالي ، وسنغاي ، وغانا التي أعتنى أباطرتها عناية خاصة بالعربية ، ووفروا لها كل الوسائل لنشرها بين الطلبة والمتعلمين ، وكانت اللغة العربية هي لسان هذه الامبراطوريات ، بحيث كانت

---

(1) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقيا القاهرة 1963 ص 51 — 52

(2) عثمان سعدي : تاريخ وأصول البربر العربية ، مجلة آفاق عربية عدد مارس 1980 .

(3) محمد بن عمر التونسي : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، 1845 م طبع ، ص 56

العربية لغة الادارة والثقافة والادارة معا كما كان استعمالها شائعا بين الناس .

وقد كان استعمال العربية في كتابة اللغات المحلية الافريقية من بين العوامل الهامة التي ساعدت على انتشارها في افريقيا السوداء . ويقدر بعض الباحثين مساهمة اللغة العربية في اثراء اللغات المحلية الأفريقية بـ 50% .(1) .

وكان انتشار التعليم العربي في القارة ، خلال العصور الحديثة ، واعتناء زعماء الاسلام الأفارقة بنشره على كل المستويات تماشيا مع انتشار الاسلام ، من بين العوامل المساعدة على انتشار اللغة العربية في القارة السمراء .

وتعتبر اللغة العربية بعد الدين الاسلامي الرابط الأساسي الذي يربط بين العالم الاسلامي ككل ، بما فيه افريقيا السوداء الاسلامية ، لذلك فلا غرابة اذا كان انتشار هذه اللغة كبيرا في هذه القارة الأخيرة . ومن المفروض أن يكون كذلك لولا تسلط الاستعمار الأوربي عليها ، ومما لا شك فيه أن اللغة العربية والانجليزية ، هما اللغتان الوحيدتان اللتان عرفتا انتشارا ، لم تعرفه أية لغة أخرى في المعمورة .(2) .

وفي نهاية القرون الوسطى تجاوزت اللغة العربية في غرب افريقيا السوداء الجانب الديني لتقتحم المجالين الاداري والثقافي ،

(1) Vincent Monteuil l'Islam Paris, 1964 PP 225 à 229

(2) J. BERAUDS— VILLARDS : L'islam d'hier et de Nos Jours P, 96

وأصبحت لغة الادارة والثقافة في كل المناطق التي مسها الاسلام .

وفي تمبوكتو توطدت أركانها وانتشرت انتشارا لا مثيل له بين أهل البلاد . وكانت في غاية الدقة والاتقان .

وفي العصور الحديثة قامت الجمعيات الدينية بدور كبير في ميدان نشر اللغة العربية والتمكن لها أكثر فأكثر في القارة السمراء ، وأسست هذه الجمعيات المدارس وأشرفت عليها ، وأنفقت عليها من مالها الخاص . وكان التعليم لديها مجانا .

ولعل ما يثبت انتشار اللغة العربية في غرب افريقيا السوادء خلال العقد الأول من هذا القرن ، هو عدد تلاميذ المدارس العربية الهائل . وقد يعطي الجدول التالي صورة واضحة للقاريء عن ذلك .

جدول عدد تلاميذ المدارس العربية ــ في افريقيا الغربية

اسم البلد	عدد التلاميذ			عدد البنات من بين المجموع		
	1907	1908	1909	1907	1908	1909
السينغال	9082	10.719	10.933	21	555	354
النيجر	10.176	10.622	»	55	61	207
المناطق العسكرية	»	3.314	14.425	55	61	207
غينيا	28.023	23.754	23.777	799	312	312
ساحل العاج	1.544	2.000	3.777	799	312	13
الداهومي	1.705	1.775	2.397	15	23	50
موريتانيا	235	235	1.558	15	23	50
المجموع	51.275	50.536	54.286	855	950	936

ان هذا الانتشار الكبير الذي شاهدته اللغة العربية في غرب افريقيا السوداء ، خاصة خلال العقد الأول من هذا القرن جعل الادارة الفرنسية تنظر نظرة متحذرة لهذه الظاهرة ، وقد أثار ذلك مخاوفها ، من نتائج ، قد تترتب عن تثقيف الأفارقة الزنوج ثقافة عربية اسلامية قد لا تكون لصالحها ، بل اعتبرت قضية تثقيف الشباب الافريقي ثقافة عربية من أكبر المصائب بالنسبة اليها . ومن ثمة عمدت الادارة الفرنسية الى اتخاذ مواقف مناوئة من اللغة العربية في غرب افريقيا السوداء . وتمثلت هذه المواقف في مراسيمها وقراراتها العديدة التي أصدرتها خصيصا لعرقلة انتشار العربية في افريقيا ، تمهيدا للقضاء التام عليها في القارة وذلك لا شيء وانما قصد احلال اللغة الفرنسية التي جلبها معه الاستعمار الفرنسي للقارة محلها ، ولبلوغ أهدافه عمد الاستعمار الفرنسي الى عدة أساليب ووسائل ، منها تطبيق «السياسة الاسلامية» في مناطق غرب افريقيا ، باعتبار أن أغلبية سكانها من المسلمين .

ولكن الحقيقة ، فإن السياسة الاسلامية «التي زعم الاحتلال الفرنسي تطبيقها في غرب افريقيا السوداء ، وذلك على غرار ما فعل في الجزائر ، وفي غيرها من المستعمرات الاسلامية الأخرى الخاضعة له ، كانت تهدف أساسا الى تجسيد فكرة الولاء للاستعمار الفرنسي خاصة وللحضارة الغربية عامة .

ورغم أن هذه السياسة كانت تهدف الى خدمة المصالح

الفرنسية في القارة ، فإنها كانت محل نقد وتنديد كبيرين ، من قبل بعض المؤلفين الفرنسيين وبعض الساسة منهم .

وكمثال عن ذلك يقول السيد لوسيان هوبير (L-HUBERT) في كتابه الذي نشر سنة 1913 بباريس تحت عنوان : «مع أوضد الاسلام» ، «... أنه لا يمكن أن تكون في افريقيا الغربية سياسة اسلامية اطلاقا ... ولكن يجب أن تكون هناك سياسات ..» وواضح من هذا الكلام تشاؤم هذا الكاتب الفرنسي من «السياسة الاسلامية» المزمع تطبيقها في القارة .

وقد أبدى الساسة الفرنسيون في أكثر من مناسبة تشاؤمهم ازاء هذه السياسة الأخيرة التي زعمت الحكومة الفرنسية على تطبيقها في القارة السوداء . علما أن تطبيق السياسة الاسلامية في افريقيا كان مجرد برامج في أذهان الجمهوريين الفرنسيين ، والتي بقيت حبرا على ورق طوال الفترة الاستعمارية الفرنسية لافريقيا السوداء .

وكما وقف رجال فرنسا الرسميين ضد تطبيق ما اصطلحوا عليه فيما بينهم بـ «السياسة الاسلامية» في افريقيا ، وقفوا كذلك موقفا مناهضا من رغبة الأفارقة الزنوج في تعلم العربية ، ومن انتماء هؤلاء الى الحضارة العربية الاسلامية . وفي هذا المجال كتب فيديرب ، الحاكم العام الفرنسي لمناطق غرب افريقيا السوداء ، (1855 — 1865) ، الى وزير المستعمرات الفرنسية يقول له «... أن الرغبة التي يبديها الزنوج في تعلم العربية ، لهي

مصيبة بالنسبة الينا ، ويجب علينا أن نحتذر من ذلك ، بل يجب علينا أن لاننمي هذه الرغبة بأي حال من الأحوال ، فاللغة الفرنسية هي التي يجب أن نعلمهم اياها ، وذلك لمصلحتنا الخاصة ، والى حد الآن لم نجعل أية وسيلة في متناول السينغاليين لتعلم لغتنا ...» ، ويختم فيدير رسالته هاته ، مخاطبا الوزير الفرنسي بالعبارات التالية : «.... وهل ذلك سيادة الوزير ، يشرف فرنسا ..؟» .

ومن جهته يلخص الكاتب الفرنسي السيد لوشانتلي (Le chantelier) آراء الحكام الفرنسيين ازاء الثقافة العربية ، والدين الاسلامي ، وانتشار اللغة العربية خاصة في افريقيا السوداء ، بصفة اجمالية فيما يلي :

«... يجب أن تكون سياسة فرنسا بالنسبة للاسلام ولغته في الداخل وفي الخارج متحفظة أشد التحفظ ، متبعة طريقا فعالا ، وبدون تردد ازاءه ، وذلك قصد التنقيص من احتمالات انتشاره التدريجي في افريقيا السوداء ...» .

وفي هذا الصدد كتب بانجير (BINGER) ، مدير الشؤون الاسلامية لافريقيا الغربية في مجلته التي أصدرها تحت عنوان : «نكبة الاسلام» يشرح نفس الفكرة السابقة ويلح الحاحاً شديدا على تطبيقها في المجال العملي ، وعنوان المجلة يدل على محتواها .

كما كتب السيد أرنوروبير (ARNOLD Robert) ، رئيس

مصلحة الشؤون الاسلامية لمدينة دركار ، في سنة 1912 ، منددا بانتشار اللغة العربية والدين الاسلامي في السينغال ، قائلا ما يلي :

«... يجب أن تكون سياسة فرنسا سياسة صارمة في افريقيا الغربية .. كما يجب وضع حد لنشاط معلمي المدارس العربية والكتاتيب القرآنية والمرابطين في البلاد ... فاذا تعاطفنا مع هؤلاء سنهيء بانفسنا اندماج الأفارقة التدريجي في الاسلام . وبهذا نكون قد أخذنا بيد الاسلام ودفعنا عجلة تقدمه الى الأمام ...» .

وبناء على هذه المواقف السلبية التي اتخذها الفرنسيون الرسميون منهم وغير الرسميين من الثقافة العربية ولغتها في غرب افريقيا السوداء ، جاء قرار الحاكم العام الفرنسي فيديرب كخطوط عريضة لها ، وهو القرار المعروف بقرار جوان 1857 .

ـ الثقافة العربية وسياسة الاحتلال الفرنسي :

مما لا ريب فيه أن استمرارية الثقافة العربية وبقاؤها في افريقيا السوداء ، مربوطان بمدى تأثيرها في الطبقات الواسعة ، وبحيويتها وديمومتها ، وذلك رغم الظروف السياسية التي انتابتها ماضيا أو تلك التي ستنتابهامستقبلا .

لم تكن الثقافة العربية في افريقيا السوداء ، مقيدة يوما ما ، بوجود سلطة سياسية خططت لها أو وجهتها نحو أهدافها ،

ومنذ دخولها الى القارة ، في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي انتشرت الثقافة العربية في هذه القارة تلقائيا، بل بانتشار الاسلام واللغة العربية .

ولكن اذا لم يتقيد انتشار الثقافة العربية في افريقيا السوداء بسلطات سياسية معينة ، فانه مدين بالكثير الى «نخبة» من المثقفين الأفارقة الذين تكونوا بالمشرق والمغرب العربيين دينيا وثقافيا وسياسيا ، ثم عادوا الى بلدانهم الأصلية أين تعاطى معظمهم مهنة التعليم بالأخص .

وبالاضافة الى أن الأفارقة عامة يبدون تمسكا شديدا بالمقومات الثقافية العربية التي أكتسبوها كاللغة ، والدين ، واللباس وغيرها ، فانهم كذلك يبدون حماسا شديدا في الدفاع عنها ، وفي التصدى لكل مناوىء لها . ويلاحظ ذلك ، عندما أراد الاحتلال الفرنسي في غرب افريقيا ، أن يجرد أهل البلاد من أبسط العلاقات التي تربطهم بالثقافة العربية ، فان رؤساء ، وزعماء الجمعيات الدينية وقفوا منه موقف الند بالند ، وثبتوا أمام التيارات التي هاجمت الثقافة العربية في المنطقة ، باعتبارها جزءا لا يتجزء من ثقافتهم المحلية ، ولا نستطيع أن ندرك مقاومة الأفارقة لسياسة الاحتلال الفرنسي في القارة ، اذا لم نلق ولو نظرة خاطفة عن أهداف ومرامي السياسة الفرنسية في البلاد .

ـــ سياسة الاستعمار الفرنسي :

كانت المستعمرات الفرنسية في غرب افريقيا السوداء في

سنة 1854 تشمل جزيرة غوري وبعض المناطق المتاخمة لها مثل ريفيسك (Rufisque) وجوال ، وبورتدال ، وسان لويس ، وبعض المراكز التجارية الثانوية من حيث أهميتها اقتصاديا وتجاريا ، في المنطقة الواقعة على ضفتي نهر السينغال .

أما في سان لويس فكان الفرنسيون يدفعون جزية سنوية للقبائل الفلانية والوولوف ، وغيرها ، واستمر الوضع كذلك حتى قدم الى المنطقة العسكري الفرنسي فيديرب سنة (1) 1854 ، الذي امتنع عن دفع الجزية الى القبائل الافريقية ، وشن عليها حربا ضارية وراح يطاردها من مكان الى آخر ، حتى أخرجها من السينغال ، بل طاردها حتى شتت شملها وتفرقت عبر الصحراء الكبرى الافريقية .

ويعتبر فيديرب هذا ، أول فرنسي سيطر على الأحداث السياسية المحلية في السينغال . وشكلت التوسعات العسكرية التي قام بها في غرب افريقيا انطلاقا من السينغال ، خطورة هامة في ميدان السيطرة الفرنسية على كامل الجزء الغربي للقارة .

وقد قدر فيديرب نفسه عدد سكان السينغال ، الذين كانوا خاضعين للادارة الفرنسية في عام 1856 ، بما يقرب من 500.000 نسمة أي بعد سنة واحدة وبضعة أشهر بعد قدومه الى السينغال .

---

(1) لويس ليون سيزار فيديرب : ولد في مدينة ليل بفرنسا في : 1818 . وتوفي في باريس في : 29 . 9 . 1989 .

وفي ظرف عشر سنوات استطاع فيديرب أن يفرض سيطرته التامة على مناطق واسعة في غرب افريقيا السوداء ، وان يكون جيشا من الأفارقة لعب دورا هاما في ضرب المقاومة الوطنية .

والى جانب النشاط السياسي والعسكري الذي قام به فيديرب في المنطقة ، فقد وضع الركائز الأولى للتعليم الفرنسي في البلاد ، حيث أسس في سنة 1855 مدرسة الرهائن في السينغال ، التي اختصت بتعليم أبناء رؤساء القبائل المناهضين للاحتلال الفرنسي في البلاد . وقد كونت هذه المدرسة في ظرف 15 سنة ما يقرب من 100 اطار افريقي من الدرجة الثانية . كما فتح فيديرب مدرسة ابتدائية أخرى ، الى جانب تلك التي كانت موجودة قبل قدومه الى سان لويس بسينغال .

وقد ازداد اهتمام الادارة الفرنسية بالميدان الثقافي والتعليمي بعد مغادرة فيديرب المنطقة ، وأنشئت مؤسسات تعليمية عديدة ، خاصة في المراكز الهامة لافريقيا الغربية .

أما في عهد فيديرب ، وهو العهد الذي يهمنا لتوضيح السياسة الفرنسية ازاء الثقافة العربية في غرب افريقيا السوداء ، فقد انصبت اهتمامات هذا الأخير على نشر التعليم الفرنسي في المنطقة ، وذلك على حساب التعليم العربي وتطور اللغة العربية .

وقد اتخذ التعليم الفرنسي في عهد قيديرب صبغة خاصة ، تميزت بالجدية في ميدان العمل ، فتح المدارس اللائكية

الفرنسية ، ذلك لأن هذا الأخير لم يرتاح لأحتكار البعثات التبشيرية الفرنسية قطاع التعليم من جهة ، وفتور هذا القطاع من جهة أخرىٰ ، الذي كان مدمجا كلية في الدين المسيحي وتوجهه الكنيسة حسب رغباتها .

وفي الحقيقة فان فكرة فصل التعليم الفرنسي عن الدين ، انما هي وسيلة اتخذها فيديرب لجلب الأطفال الأفارقة ، وخاصة منهم المسلمين الى المدارس الفرنسية ، التي نفروا منها ورفضوا الالتحاق بها ، واعتبروها لاتفيدهم في شيء ، بل حتى التعليم الذي تعطيه يتنافي محتواه مع معتقداتهم وثقافتهم العربية الاسلامية وأخلاقهم وعاداتهم العربية .

وعمد فيديرب الى اتخاذ المدارس العربية كوسيلة للتقرب من الأهالي الأفارقة المسلمين ، وأداة تجعلهم يلتحقون بالمدارس الفرنسية من تلقاء أنفسهم ، بحيث أصبحت هذه المدارس بمقتضى قرار 22 جوان 1857 تابعة للادارة الفرنسية ، وتخضع تقريبا لنفس القوانين التي تخضع لها المدارس الحكومية الفرنسية نفسها ، بل فرض القرار الأخير على المدارس العربية ، تعليم اللغة الفرنسية فيها الى جانب العربية ، ومهما كانت تطورات الأحداث التي عرفها الميدان الثقافي والتعليمي في غرب افريقيا السوداء ، تحت ظل الاستعمار الفرنسي ، ورغم الجهود التي بذلها الوطنيون الأفارقة المتشبعون بالثقافة العربية الاسلامية في مقاومة تحديات الاستعمار الفرنسي للثقافة العربية في البلاد ،

فقد أستطاع الفرنسيون أن يرجحوا لصالحهم كفة الميزان ، وأن يهيمنوا هيمنة تامة على الميدان التعليمي والثقافي ، وبالأخص في الفترة الفاصلة بين الحربين .

وسبب الهيمنة الفرنسية التي استمرت حتى بعد استقلال كل الأقطار الافريقية التي كانت خاضعة للاستعمار الفرنسي ، ما هي في الحقيقة الا نتيجة من نتائج نشر الثقافة واللغة الفرنسية ، والديانة المسيحية في المنطقة .

ولم يكن يتسنى للعلاقة الامبريالية الفرنسية أن تتوطد بينها وبين أقطار شتى من افريقيا السوداء ، لولا هذه العوامل الحضارية الثلاثة ، التي ذكرناها سابقا أي اللغة والثقافة والدين . وقد أعتبر الاستعمار الفرنسي وبعض المدافعين عنه ، أن هذه العوامل الحضارية الثلاثة مظهر من مظاهر التبعية والاستعمار ، ومن ثمة سعى الاحتلال الفرنسي في افريقيا السوداء جاهدا لجعلها في خدمة مآربه موفرا لها كل أسباب وظروف النجاح .

والمعلوم أن جل أقطار افريقيا السوداء ، التي كانت خاضعة للاستعمار الفرنسي سابقا قد حصلت على استقلالها دون أن تطلق طلقة نارية واحدة ، بل قبل أن تنضج فيها الحركة الوطنية ايديولوجيا وسياسيا . وقد يرجع ذلك الى السياسة الاستعمارية «الحديثة» التي سنها ديغول لفرنسا بعد توليه مقاليد الحكم .

وقد نتج عن هذه السياسة الديغولية الجديدة ، تنصيب «أصدقاء» فرنسا في الحكم ووضعهم على رأس بلدان افريقية أغلب سكانها من المسلمين . علما أن أصدقاء فرنسا هؤلاء الذين نصبوا في الحكم من طرف فرنسا نفسها قد نشأوا في الأديرة المسيحية وتربوا فيها وتغذوا بلبانها .

ــ علاقة الجزائر بافريقيا السوداء :

بحكم انتماء الجزائر الى مجموعة البلدان الصحراوية ، ربطتها علاقات مختلفة بغرب افريقيا السوداء ، ووسط افريقيا على الأخص . نلمس هذه العلاقات في الميدان التجاري على وجه الخصوص ، وذلك منذ قيام ممالك افريقية قوية تمكنت من اقامة نظام قوي عسكريا واقتصاديا وتطلعت الى عبور الصحراء الافريقية بنفسها لاقامة علاقات تجارية تربط بينهما وبين مختلف اقطار شمال افريقيا ، وان كانت هذه الاخيرة قد وضعت نصب أعينها مراكش بالدرجة الأولى ثم فاس ، الا أنه ليس هناك ما يمنعنا أنها أتجهت بعد ذلك نحو المناطق الصحراوية الجزائرية المتاخمة لمناطقها .

ومن الممالك الافريقية الهامة التي تأسست بين القرن الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين مملكة صوصو وديار ، وغلام ، ومالي التي كانت في الواقع تابعة اسميا لمملكة غانا القديمة ، في الجنوب الموريتاني الحالي ، وعندما دبّ الضعف في أركان غانا أنفصلت عنها شيئا فشيئا ، حتى أن بعضها مثل

مالي ، أسس على أنقاضها نفوذه السياسي والاقتصادي وحل محلها اصطلاحا وقوة عسكرية وسياسية واقتصادية .

ومن طبيعة التجارة ، أن لعبت دورا هاما في ربط الصلات بين كل من الجزائر وغرب افريقيا السوداء ، ووسطها . وعندما اندثرت الأمبراطورية الموحدية خلال القرنين 13 ، 14 الميلاديين والتي كانت تحتكر التجارة في المناطق المذكورة ، حلت محل السلطة الرسمية المبادرة الخاصة لدفع مواصلة التجارة بين الجزائر وغرب افريقيا والحفاظ على طرق القوافل التي كانت تنطلق من الجزائر الى وسط وغرب القارة ، وهو الشيء الذي نتج عنه تأسيس شركات حقيقية جزائرية أخذت على عاتقها مواصلة التجارة بين الجزائر والمناطق الصحراوية المتخامة لها . وأشهر هذه الشركات تلك التي أسسها الأخوة المقري وهم أجداد مؤلف «نفح الطيب» . «... فكان أبو بكر ومحمد بتلمسان ، وعبد الرحمان وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهم الصغيران بأيولاتن .. وكان التلمساني يبعث الى الصحراوي بما يرسم له من السلع ويبعث اليه الصحراوي بالجلد والعاج . والجوزة والتبر والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان ...» .

وقد تقلصت التجارة بعض الشيء بين تلمسان وغرب افريقيا خلال الحوادث العسكرية والانقلابات السياسية التي

شهدتها المنطقه والتي صاحبها أندثار هذه المملكة وقيام الأخرى ، ولكن الاخوة المقري حسب صاحب «نفح الطيب» قد استطاعوا بدهاء وحكمة التغلب على هذه المشاكل وربطوا علاقات وثيقة بينهم وبين الحكام والسلاطين الجدد للممالك التي قامت هنا وهناك في السودان الغربي ، ورجعت بذلك المياه الى مجاريها الطبيعية .

ومن الطبيعي ان التجارة الخارجية للجزائر مع افريقيا السوداء كانت تتم بواسطة قوافل تجارية تجوب الصحراء الكبرى الافريقية طولا وعرضا وتربط بين موانى الشمال البحرية وأسواق أعماق الصحراء الكبرى في اتشاد والنيجر ، ومالي ، وافريقيا الوسطى ، والسينغال وتمبوكتو .

اضافة الى البضائع المحلية التي كانت تتاجر بها هذه القوافل مع غرب افريقيا السوداء ، كانت تنقل اليها أيضا كثيرا من البضائع المستوردة من أوربا الشمالية ، والتي تجد رواجا كبيرا في أسواق المناطق المذكورة سابقا .

أما الطرق التجارية التي كانت تربط الجزائر بغرب افريقيا السوداء ، فأهمها ثلاثة ، كما تؤكد عليه كتابات المختصين في هذا الميدان .

أولاها : طريق وهران وأرزيو الى تيمبوكتو ، الذي يلتقي بطريق فاس نحو تيمبوكتو ، ويمر هذا الطريق على الخيثر ومشرية وعين الصفراء وفيقيق ، ثم يتبع مجرى واد زوزفانة الى ايجلي أو

(ايغلي) . ولهذا الطريق فرع آخر الى شرق الأول ينطلق من خيثر الى البيض ، والأبيض سيدي الشيخ ، والمنقب ، وتوات ، أين يلتقي بطريق وهران ، وفاس ، ومكناس الى تمبوكتو .

ثانيها : طريق الجزائر العاصمة الى تمبوكتو ، ويمر على البليدة ، وبوغار الأغواط ، وغرداية والمنيعة وعين صالح وأكابلي ، وبئر تيريشومين أين يلتقي بطريق توات الى تمبوكتو .

ولهذا الطريق فرع آخر من عين صالح الى بئر عسيو ، وتنتيلوست ، أين يتفرع الى فرعين كذلك : فرع الى أقادم ، وماو ، شرق بحيرة أتشاد . والى أقادم وكوكا جنوبها . وفرع الى الجنوب الغربي نحو أقاديش أين يتفرع هو الآخر الى نوعين : فرع الى سوكوتو ، وفرع الى كاتسمنا .

ثالثها : وهو طريق سكيكدة ، وقسنطينة الى أمقيد ، والهقار ، وتمبوكتو ويمر على باتنة وبسكرة ، وتقرت ، وورقلة ، والبيوض ، وأمقيد ، وتيميساو ، وايفروان ، الى مبروك وتمبوكتو أو الى سوبوروح (برنوح) . ولهذا الطريق فرع يبدأ من جنوب بسكرة ، ويتجه الى وادي سوف ، ومن هناك الى غدامس ، وغات ، وحيادو ، وبلما ، وأقاديم ، وماو ، وفرع من البيوض الى عين صالح . وفرع ثالث الى غات .

وأهم ألأسواق التجارية التي تتجه اليها هذه الطرق في أعماق الصحراء تتجمع في ثلاث مناطق رئيسية هي :

أولا : السودان الغربي ، ومن أهم أسواقه ، تمبوكتو ، وأروان ، ومبروك ايفران ، وتيميساو ، وأونان ، وتاوديني ، وولن ، وتيريشومين ، وأكابلي .

ثانيا : أسواق اتشاد والسودان الأوسط : ومن بينها سوكوكتو وقاندو ، وكاتسانا ، وتاقليل ، وأقاديس ، وكوكو في بورنو الخ .

ثالثا : أسواق السودان الشرقي : ومن بينها أسواق دارفور ، وكاردوفان ، وسنار ، والخرطوم ودنقلة وغيرها .

أما عن الجانب الثقافي وعلاقة الجزائر بغرب افريقيا السوداء فتتجسد في تنقل بعض علماء الجزائر الى هذه المناطق الأخيرة ، من حين الى آخر وكثيرا ما كانت شهرة علماء الجزائر تسبقهم الى هذه المناطق ، وذلك شأن محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني : الذي انتقل إلى شمال نيجيريا واستقر في هذه البلاد مدة مارس فيها مهنة التدريس والوعظ والارشاد في بلاد الحوصا ، ولم يغادر المغيلي البلاد الا بعد أن ترك بها عددا هاما من التلاميذ ، وتوجد في كانو حتى اليوم جماعة ينسبون أنفسهم كاحفاد للمغيلي (1) .

لقد كان المغيلي أحد علماء زمانه ، وما امتداد جهوده الى السودان الغربي الا دليل آخر على العلاقات الطيبة التي كانت تربط افريقيا السوداء بالجزائر عبر العصور المختلفة .

(1) أنظر مقال/د/ عبد القادر زبادية : التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي ، الاصالة عدد 26 — ص 203 — 215 .

الفصـــل الثالـــث

آثار انتشار الاسلام والثقافة العربية في غرب افريقيا السوداء

ـ المراكز الثقافية الاسلامية

1)ـ تمبـوكتـو :

نشأت تمبوكتو على يد توارق مقشرن في آخر القرن الخامس الهجري ، واسمها يعني (العجوز) (1) وخلال القرن الثالث عشر الميلادي أصبحت مدينة تمبوكتو مركزا ثقافيا هاما في السودان الغربي (2) وتكاثر العلماء بها وشاركوا مناطق العالم الاسلامي الأخرى في الانتاج الفكري والثقافي ، وذلك عندما ضعف مركز ولاتا في المنطقة بعد غزو المرابطين لغانا .

وقد بلغت تمبوكتو أوجها الثقافي والاقتصادي خلال القرنين 14 ، 15 م . غير أنها بدأت تضعف في نهاية القرن 16 م وذلك بسبب الغزو المغربي الذي تعرضت له المنطقة .

(1) السعدي : تاريخ السودان ص 20

(2) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ط/5 ، بيروت 1968 ، ص 639 .

وفي عهد الأساقيين شهدت تمبوكتو حركة ثقافية وتجارية دائبة ، وذلك لمدة قرن من الزمن ، وساد النظام والأمن المنطقة مما جلب اليها التجار الأفارقة والمشارقة على السواء (1) . وقد اشتهرت تمبوكتو بحركاتها الثقافية على الطراز الاسلامي في السودان الغربي كله وتكاثر بها السكان ، الذين يقدر عددهم بعض الباحثين ، خلال الفترة المذكورة بما يقرب من 30.000 نسمة . وحظي العلماء بها باحترام كبير ، ومنحت المساعدات للطلبة ، ليس فحسب من طرف الملك ولكن من طرف أثرياء البلاد ، وذلك لبلوغ مقاصدهم الثقافية .

وقد اشتهرت تمبوكتو بمسجدها الكبير الذي أسسه كنكن موسى ، ورممه الأسقياداود ، وذلك في نصف القرن 16 ، وهو : مسجد السنكوي ، الذي كان من أشهر المراكز الثقافية في السودان الغربي . وقد كان ملتقى المثقفين والطلبة .

أما نوع التعليم الذي كان يعطي فيه فهو من النوع العالي ، حيث تدرس المواد فيه على شكل اختصاص وتتناول بتفصيلات واسعة مستندة على امهات الكتب التي عرفت لدى المسلمين حتى ذلك الوقت .

ومن مسجد السنكري هذا تخرج كثير من علماء السودان الغربي الذين كان لهم ضلع في العلوم والمعارف التي

(1) محمود كعت : تاريخ الفتاش ص 14 .

سادت العالم الاسلامي في القرون الوسطى . ويرجع الفضل الى هؤلاء العلماء في نشر الثقافة العربية الاسلامية في كل مناطق السودان بشقيه الغربي والشرقي . وقد اشتهر من علماء تمبوكتو كل من أحمد بابا التمبوكتي ، وعبد الرحمان السعدي ، والقاضي محمود كعت . ولكل من هؤلاء كتب وتآليف معتبرة ، اشتهرت بين المثقفين العرب والمهتمين منهم بالقضايا الفكرية عبر مختلف العصور . أما في القرون الحديثة فقد شكلت بالنسبة للأوربيين مصدرا من المصادر التي لا يستغنى عنها اطلاقا لدارسة التطور التاريخي الذي عرفته المنطقة عسكريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا . ومما لا ريب فيه أنه في وقت لاحق ، «اذا أستمر الفتور الاقتصادي الذي تعرفه آنيا أوربا وأمريكا على هذه الوتيرة ، التي هو يسير عليها» ستعرف مؤلفات السودانيين على المستوى العالمي .

وقد زار الحسن الوزان تمبوكتو ولاحظ فيها كثيرا من الاطباء والعلماء والقضاة والدعاة ، الذين كانوا يعينون بمرسوم ملكي . وقد شجع الأساقيون الحركة الثقافية في تمبوكتو تشجيعا يستحق الذكر ، وبجلوا العلماء ، وقدروا الأدباء ، وعملوا على جلب الكتب واقتنائها مهما ارتفعت أثمانها .

ومن الناحية المعمارية أعجب الحسن الوزان بتمبوكتو وأشار الى انتشار حوانيت الصناع والتجار بها ، خاصة منها تلك التي تبيع المنسوجات والأقمشة المصنوعة في أوربا والتي يحملها

اليها تجار الجزائر وتونس والمغرب الأقصى . ومن جهة أخرى يشير الوزان الى جمال وبهاء مسجد تمبوكتو ، ويسميه «بالمعبد» ، وهو المسجد السنكري الذي بناه مهندس من أهل غرناطة يدعى اسحاق الساحلي الذي أصطحبه كنكن موسى معه وهو عائد من الحجاز ، بعد أن أدى حجته الشهيرة . ونفس المهندس هذا هو الذي بنى قصر الملك الرائع الذي جلب اليه الأنظار والاعجاب من قبل كل الذين عرفوا تمبوكتو في فترة ازدهارها وأكتمالها الاقتصادي والثقافي .

وفي أخريات القرن الخامس عشر الميلادي دب الضعف في هياكل أمبراطورية سنغاي ، مما سهل على المغاربة غزو تمبوكتو سنة 1490 ، وبقيت تحت حكمهم حتى سنة 1570 . وفي نهاية القرن الثامن عشر استردها التوارق ، ثم استولى عليها الفلانيون سنة 1827 ، وظلت في أيديهم حتى وقعت تحت ايدى الفرنسيين سنة 1893 . وهو ما يقودنا الى الحديث عن تسابق الأوربيين نحو تمبوكتو .

ـــ تسابق الأوربيين نحو تمبوكتو

بقيت تمبوكتو حتى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر ، تشكل نقطة بيضاء بالنسبة للأوربيين حتى بالنسبة لأولئك الذين نشطوا منهم في الكشف عن مناطق هامة كانت مجهولة تماما من قبل أوروبا في أمريكا وآسيا وافريقيا . فالبرتغاليون

مثلا لم يعرفوا شيئا عن تمبوكتو سوى اسمها ، وبعض الأخبار عنها ، باعتبارها مركزا تجاريا هاما ، في افريقيا جنوب الصحراء . ولبعدها عن شواطيء الأطلسي لم يحاول هؤلاء الدخول اليها . ولكن في الثلث الأول من القرن الماضي برزت للأوربيين أهمية تمبوكتو الاقتصادية والاستراتيجية ، وجذبت أنظارهم إليها ، فوجهوا اليها الحملات العسكرية والبعثات للتعرف عليها ولدراستها من جميع النواحي تمهيدا لاحتلالها .

وكان أول من دخل تمبوكتو من الأوربيين ، في أوائل القرن 16 م هو الفرنسي بول أنبير (Paul Imbert) ، وهو أحد البحارة الفرنسيين ، الذين غرقت سفينتهم في عرض المحيط ورمت الأمواج أشلاءها على شواطئه . فأسره أهل البلاد ، وأخذ الى تمبوكتو ، التي عاش فيها قرابة 10 سنوات ، ثم غادرها واستقر بالمغرب الأقصى ، أين مات دون أن يدون أي شيء عن الفترة التي عاشها في تمبوكتو .

وبعد قرنين من الزمن ، وبالضبط في عام 1826 حاول الضابط الانجليزي اليكساندر غوردون (Alexandre)GORDON) الوصول الى تمبوكتو ، فانطلق من طرابلس مرورا باغدامس وعين صالح ، وكاد أن يقتل وهو في طريقه اليها في منطقة الهقار ، من قبل التوارق ، لولا تدخل قبيلة أولاد الشيخ سيدي المختار التي أوته وسهلت له سفره اليها . وقد وصل غوردون تمبوكتو في نفس السنة السابقة الذكر ، وأقام بها

مدة من الزمن تمكن خلالها من تسجيل معلومات هامة عليها ، ولكنه قتل وهو عائد منها ، وضاعت كل مذكراته بموته .

وأول أوربي استطاع ان ينقل اسرار تمبوكتو الى أوربا ، وأن يدخلها ويخرج منها بنجاح تام هو الفرنسي روني كاييه (René)CAILLE) ، الذي انتقل الى السينغال وعمره لا يتجاوز 16 سنة وقطع الصحاري التي تفصل بين سان لويس وباكل في السينغال مشيا على الاقدام ، وذلك ليلتحق ببعثة الماجور قري (GREY) الفرنسي ، التي كانت هناك في مهمة استكشافية للمنطقة . ثم مرض كاييه مرضا خطيرا ، أرغمه على الرجوع الى فرنسا للمعالجة ، وفور شفائه رجع مرة ثانية الى السينغال في سنة 1824 ، واتصل بقبيلة البراكنة الموريطانية ، التي تقطن في السينغال آنذاك ، وأقام عندها مدة من الزمن ، مكنته من تعلم اللغة العربية ومباديء الاسلام . وطوال سنة كاملة استعد استعدادا كاملا للعيش في الصحراء الافريقية . وبعد ذلك رجع الى سان لويس ، وشرح للسلطات الفرنسية هناك مشاريعهاالاستكشافية ، التي تهدف الى احياء ما قام به كل من مينو بارك (MUNO-Parki) وغردون ، فاتهموه بالجنون ولم ينصتوا له ، فغادر سان لويس نحو سييراليون المستعمرة الانجليزية ، وأتصل بالحاكم العام الأنجليزي لغرب افريقيا تيرنير . (Turner) وشرح له مشاريعه وأهدافها ، فوعده أن ينظر فيها جيدا . ولكي يضمن استقراره في المنطقة ، اسند له تيرنير وظيفة محترمة في الادارة الانجليزية في سييراليون .

ولكن بعد أن جمع كاييه مبلغا ماليا (2.000 فرنك فرنسي) رآه كافيا لتغطية مصاريف سفره الى تمبوكتو استقال من منصبه واتصل بالقوافل التي كانت تتجه نحو الصحراء الغربية الافريقية . وفي 14 أفريل من سنة 1826 أنطلق من كاكاندي مع قافلة منذ نغية نحو تمبوكتو . وبعد 3 أشهر وصل الى تيمى (Temmé) منهارا معنويا وماديا . وأصابه مرض خطير هناك فأوته احدى العائلات الغينية وسهرت على شفائه ، ومن هناك واصل سفره نحو تمبوكتو ، وتوقف بِجَنِّي أعالي النيجر ، واستطاع بدهائه وذكائه أن يقنع حاكمها «بعروبته واسلامه» ، فوجهه الى أحد أشراف تمبوكتو ، التي دخلها في يوم 20 أفريل سنة 1827 .

وقد أقام كاييه بين أهل تمبوكتو مدة زمنية معتبرة مكنته من دراسة المنطقة من جميع نواحيها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والثقافية ، والغريب في الأمر أنه أستطاع اقناع كل الناس الذين أحتك بهم «بأنه عربي مسلم ، ولكنه عاش في أوربا مدة طويلة جعلته ينسى حتى لغته العربية وبعض شعائره الدينية الاسلامية ..» ولولا براعته في المكر والخداع لكان مصيره كمصير سابقيه من المغامرين الأوربيين الذين حاولوا أقتحام أسوار تمبوكتو ... .

وبعد أن جمع من المعلومات ماراه كافيا عن المنطقة غادر تمبوكتو نحو المغرب الأقصى ، ومنه سافر الى فرنسا ، التي دخلها

وهو يتغنى بنشوة انتصاره وبعد مدة قليلة نشر معلوماته عن تمبوكتو في كتاب من ثلاثة أجزاء ، اعتبره معاصروه من حادثه العصر ، وفعلا كان كذلك لأنه كان الوثيقة الأولى والأخيرة التي أعتمدت عليها فرنسا لوضع خطتها الاستعمارية للجزء الغربي من القارة السمراء .

رغم ذلك بقيت تمبوكتو ردحا من الزمن ممنوعة على الأوربيين واليهود على السواء ، اذ جرت العادة أن أعلن سلاطينها وحكامها عداءهم لليهود خاصة للأوربيين عامة ، حتى أخرجوهم منها جميعا ولم يقم فيها يهودي واحد ، خاصة بعد حادثة أتوات الشهيرة ، واذا حدث أن تم الى علم حاكمها أنه لتاجر ما من التجار علاقة مع يهودي صادر أمواله وطرده منها . وفي مؤلف كابيه نجد كثيرا من هذه المواقف .

وفي الربع الأخير من القرن الماضي أزدادت اهتمامات الأوربيين بتمبوكتو ، وذلك بازدياد المد الاستعماري في القارة السمراء ، وتوجه نحوها بعض المغامرين الأوربيين ، وحاولوا دخولها ، كما سعت ادارة الاحتلال الفرنسي لمناطق غرب افريقيا في السينغال الى كشف القناع عنها بتوجيه عدة حملات منظمة نحوها ، منها ماتكون من فرد واحد ، ومنها ما تكون من جماعة من العسكريين الفرنسيين ، ولم تكن فرنسا وحدها في حلبة للتسابق هذه نحو تمبوكتو ، بل شاركتها في ذلك كل من المانيا وانجليترا . وسنقتصر فيما يلي على المحاولات الهامة التي قام بها

هؤلاء وأولئك ، دون التطرق الى المحاولات الكثيرة التي فشلت في الدخول الى تمبوكتو .

ـ دخول أسكار لانتز (LANTZ) الى تمبوكتو

في 1879 كلفت الشركة الافريقة الالمانية أسكالانتز القيام بأبحاث جيولوجية في مناطق الأطلس المغربي . فبدأ أعماله في مناطق تيطوان التي لم يدرسها جيولوجيا فقط ، ولكن أيضا درسها من جميع النواحي الأخرى ، التي تهم الاستعمار الألماني : اقتصاديا وأجتماعيا وسياسيا وثقافيا ، ومن هناك توغل داخل المغرب ، فزار فاس ، ومكناس ، ومراكش ، ومنها متنكرا في هيئة طبيب تركي ، تحت اسم الحكيم عمر بن علي توغل في الصحراء الافريقية مرورا بوادي سوس ، ونزودانت ، وتيزقي ، وتندوف الى أن وصل عروان .

ورغم الصعاب التي اعترضت طريقه استطاع أن يدخل تمبوكتو في يوم 1 جويلية من سنة 1880 . وبقي بها 18 يوما . استطاع خلالها أن ينقل عنها معلومات هامة الى أوربا .

ـ محاولة كارون (CARON) دخول تمبوكتو سنة 1887

اعتبر الفرنسيون في الثمانينات من القرن الماضي المعلومات التي أتى بها كاييه في سنة 1827 شائخة نوعا ما ، وأن تمبوكتو خلال الفترة الأولى تختلف قطعا عن تمبوكتو خلال الفترة الثانية ، لذلك حاولوا عدة مرات الدخول اليها ، فبعثوا اليها الجواسيس

والمغامرين ، منهم من وصل الى مشارفها ، دون أن يدخلها ، ومنهم من لقي حتفه وهو في طريقه اليها . وسنقتصر هنا على ذكر محاولتين اثنتين لضباط في الجيش الفرنسي ، وهما محاولتا كارون وبانجير .

في سنة 1887 اهتم الحاكم الفرنسي العام لغرب افريقيا اهتماما بالغا بمناطق نهر النيجر الأعلى ، وخاصة منها تمبوكتو ، فجهز لهذا الغرض حملة عسكرية تكونت من 14 رجلا ، من بينهم مترجمان يحسنان اللغة العربية وبعض اللهجات المحلية ، وطبيب و10 عسكريين من البحارة الفرنسيين ، على رأسهم الملازم كارون . وقد حدد قالييني لهذه البعثة مهمتها في ثلاث نقاط هامة ، وهي :(ا) دراسة المناطق التي تقطعها من السينغال الى تمبوكتو دراسة اقتصادية وافية ، (ب) تسجيل كل المعلومات الجغرافية الهامة عن المنطقة طبيعيا وبشريا ، (ج) دراسة الأحوال السياسية للمنطقة ونظم الحكم القائمة بها ، ومدى قدراتها الحربية .

وقد قطعت هذه البعثة طريقها بدون صعوبة حتى وصلت منطقة ديافاربي ، وهي النقطة الفاصلة بين المناطق الخاضعة للاستعمار الفرنسي والغير الخاضعة له ، وفي ديافاربي توقف كارون ليزور شيخ الفلانيين تيدياني (Tidiani) ، وهو أحد أحفاد الحاج عمر الذي قاوم طويلا الاستعمار الفرنسي في المنطقة ، فاستقبله استقبالا باردا مشوبا بالحذر ، ورغم ذلك لم ييأس الضابط الفرنسي ، في محاولته لجلب الفلانيين الى صفه ،

وعرض على شيخ الفلان معاهدة ود وسلام — كلها اغراءات براقة ناصعة — حتى أنه الحظة ما ظن أن تيدياني مستعدٌللتفاوض مع حكومته ولكن فجأة قطع هذا الأخير كل شيء ، وصد عن ممثلي الحكومة الفرنسية .

وهدد بأنه سيمنع البعثة من أن تستأنف مسيرتها نحو تمبوكتو ... .

رغم ذلك صمم الضابط الفرنسي على المضي أماما ، وأستأنف طريقه نحو هدفه ، حتى وصل الى كيريمي (KERIME) ، أحد موانى نهر النيجر الأعلى ، على بعد 20 كلم من تمبوكتو . وأستعد للدخول اليها . ولكن قبائل الأرمة التي كانت تحكم تمبوكتو اسميا ، أتصلت بكارون سريا وحذرته من مغبة الدخول اليها ، أو محالة الاتصال بهم ، وأن التوارق الحكام الحقيقيين يراقبون كل التحركات المريبة الداخلية والخارجية منها ، وينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض على البعثة الفرنسية .

وقد أخذ كارون بنصيحة قبائل الأرمة له وعدل عن مقصده ورجع عن أعقابه دون أن يحقق هدفه ، ولم يدخل تمبوكو ، ورجع الى السينغال مكتفيا بالمعلومات التي سجلها عن مناطق النيجر الواقعة بينه وبين تمبوكتو .

— محاولة بانجير في سنة 1887

حاول العسكري الفرنسي ، النقيب بانجير (Binger) ،

في سنة 1887 ، أن يستكشف انطلاقا من السينغال مناطق نهر النيجر التي كانت مجهولة من قبل الفرنسيين ، حتى هذا التاريخ ، وان يربط العلاقة الموجودة بين ما استكشفه الضباط الفرنسيون من مناطق وما كشف عنه بارث الأنجليزي .

وعلى غرار كابيه درس بانجير تقاليد وعادات سكان المنطقة وبعض لهجاتها الهامة . وانطلق من مدينة كاييس بالسينغال نحو تمبوكتو .

قبل أن يدخل غينيا أشعر بانجير ساموري توري بقدومه ، وكان هذا الآخر في حرب دامية مع الوثنيين الأفارقة ، ورغم عداء ساموري توري للفرنسيين أبدى رغبته في مساعدته على قطع الأراضي الغينية ، فوضع تحت تصرفه بعض الرجال لحمل أمتعته ، فتوغل في البلاد حتى وصل مناطق نفوذ الوثنيين الذين كانوا تحت قيادة زعيمهم بيقي (Pégue) ، الذي استقبله ولكنه رفض أن يدخل عاصمته نييلي (NIELE) .

واذا كان استقبال زعيم الوثنيين بيقى للضابط الفرنسي قد يكون معقولا ، فاستقبال ساموري توري له يثير عدة تساؤلات ويصعب على المرء أن يفهم لماذا قدم هذا الأخير المساعدات المادية والمعنوية لهذا الضابط الفرنسي ، وهو في نفس الوقت كان في حرب مع الفرنسيين في غرب افريقيا ؟ أو على الأقل كل شيء كان ينذر بانفجار حرب بينه وبينهم . وهو ما حدث فعلا إذ طارد الفرنسيون ساموري توري من مكان الى آخر ، وشددوا

الحصار عليه ، حتى وقع في أيديهم سنة 1898 ، فأسروه واعتقلوه الى الغابون مكبلا وهكذا استطاعوا القضاء على آخر حركة مسلحة قامت في وجوههم في غرب افريقيا السوداء .

ومهما يكن من أمر فقد أصاب بانجير مرض خطير ألزمه الفراش عدة أسابيع ، وفور شفائه واصل مسيرته نحو تمبوكتو ، ورغم أنه وصل الى مشارفها وجد صعوبات جمة أمامه ، ولم يستطيع دخولها .

ولولا ذكاؤه الحاد ، وحسن معرفته للهجات الافريقية لهلك وهو يعبر مناطق نهر النيجر الأعلى . وقد أستغرقت رحلته الى تمبوكتو سنتين كاملتين ، استطاع خلالها أن يحصل على معلومات جغرافية واقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية ، هامة عن المناطق التي قطعها بين السينغال وتمبوكتو .

واذا كان بانجير قد تعذر عليه دخول تمبوكتو وكشف القناع عليها كما فعله سابقا زميله كاييه فأنه أكتشف مدينة هامة في أعالي نهر النيجر ، وهي مدينة كونغ (Kong) التي كانت آهلة بالسكان ، الذين قد رهم آنذاك بـ 10.000 نسمة ، كلهم يدينون بالاسلام ، ولا يعرفون ديانة آخرى غيره ، وقد أحصى هذا الفرنسي في سنة 1889 ، 8 مساجد بهذه المدينة ، و 7 أحياء رئيسية . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، هو : كيف أخذ الاسلام طريقه الى هذه المناطق النائية ، البعيدة عن المراكز الحضارية في افريقيا السوداء ، والتي كانت مجهولة حتى

من قبل الأوربيين الذين نشطوا في الكشف عن المناطق الداخلية لافريقيا السوداء ، خاصة في نهاية القرن الماضي ...؟ .

ـ 2 جني :

تأسست مدينة جني على نهر النيجر الأعلى ، حوالي سنة 1100 م أو 1101 م . وذلك في عهد الدولة المرابطية وقد جاء تأسيسها بعد أن أخذ نجم ولاته وغيرها من المراكز الحضارية القديمة في الأفول .

أما الأسطورة الشعبية المتداولة بين الأفارقة بشأن تأسيس مدينة جني ، فترجع تاريخ تأسيسها الى بداية القرن الأول الهجري ، السابع الميلادي ، ولطرافة هذه الأسطورة ، ولما تحمله من معاني تثبت اعجاب الأفارقة وميلهم الى الاسلام والعروبة سنحاول ايجازها قدر الامكان ، في السطور الآتية . تقول الأسطورة .

«أن شماوروشي ، وهو أحد المجاهدين المسلمين الذين اشتهروا في غزوة بدر الكبرى ، هو الذي يكون قد عين للقبائل الافريقية مكان تأسيس المدينة وذلك بوحي من الرسول صلى الله عليه وسلم مشيرا الى هذه القبائل عندما عزمت على تأسيس المدينة الى أنها ستكون اما تحت الجنة أو فوقها ، لذلك أخذت جني اسمها من «جنة» كما أشار الى ذلك المجاهد الافريقي شماوروشي ثم حرف اسمها الى «حنا» وأخيرا الى

«جني» وأثناء معركة بدر جلبت شجاعة وبسالة المجاهد الافريقي شماوروشي انتباه الرسول . وبعد المعركة استدعاه وسأله من أين أنت ؟ فأجابه : أنا أصلا من نيونا ، (قرية صغيرة ، تقع بالقرب من جني في جنوبها الغربي) فقال عليه السلام : أرجع الى بلدك ، وشيد مدينة كبرى ، تكون تحت الجنة أو فوقها ، ومركزا اسلاميا كبيرا ...»

وفي نهاية القرن 12 م . أسلم سلطان جني ، ثم أسلم أهلها باسلامه ، وخرب دار السلطنة وأقام في مكانها مسجدا للصلاة .

وفي مطلع القرن الثالث عشر الميلادي ، تمسكا بروح الاسلام هدم سكان مدينة جني الأصنام التي كانوا يعبدونها وأقاموا في مكانها المساجد ذات الطراز المغربي الأندلسي .

وما لبثت جني أن أصبحت من حيث أهميتها التجارية ثالث مركز في السودان الغربي ، وذلك بعد كل من تمبوكتو وغاوو ، التي سيأتي الكلام عنها ، أما في الميدان الثقافي فقد تأتي في المرتبة الثانية من حيث المكانة التي تحتلها في هذا المجال في المنطقة أي مباشرة بعد تمبوكتو .

وفي عهد ازدهار أمبراطورية مالي ، يبدو أن السلام كان مستتبا بينها وبين جني ، ولم تدخل هذه الأخيرة تحت سلطة الأولى رسميا . وقد حافظت جني على استقلالها تحت رئاسة قبيلة سوتكي الى أن دخلها الأساقيون في عهد امبراطورية سنغاي .

واستولى الاسقياسني علي على مدينة جني في سنة 1468 م . وألحقها بسنغاي ، وفي نفس السنة استولى كذلك على تمبوكتو ووضعها تحت حمكه . والظاهر أن سني علي هذا قد أضطهد علماء مدينة جني اضطهادا كبيرا ، إبان احتلاله لها ، مما جعل بعضهم يغادرونها خوفا من بطشه ، وعسفه الذي سلطه عليهم ، وقد اتجهوانحو ولاته .

وفي هذه الحقبة التاريخية يمكن حصر ازدهار كل من مدينتي جني وتمبوكتو ، وبالأخص في ميدان صناعة النسيج والقطن ، وقد كانت جني مركزا هاما تزود منه تمبوكتو التي كانت تشكل بالنسبة لجني ، ميناء على ضفاف الصحراء .

وقد تكاثر السكان بمدينة جني ، ودبت الحركة التجارية فيها بشكل ملحوظ ، ونافست تمبوكتو في الشهرة .

وكانت للحركة الثقافية التي شهدتها تمبوكتو على أيام الأساقيين انعكاساتها الواضحة على مدينة جني . وسكنها علماء أجلاء من قبائل مختلفة ، منهم مورمغ كنكي ، وكان عالما تقيا ذا قدر كبير . وقد كرس هذا الأخير حياته لنشر العلم ، والمعرفة بين الناس ، اذ كان يخرج من منزله في منتصف الليل الى المسجد لتعليم الطلاب ، وذلك حتى مطلع الفجر فيصلي ثم يعود الى طلابه ، حتى الزوال ، ثم يذهب الى داره ، ويعود الى طلابه ثانية بعد صلاة الظهر ليعلمهم ، وذلك حتى صلاة العصر .

ومن العلماء الاجلاء الذين سكنوا جني في عهد الأساقيين الفقيه نودي محمد ساقوا وكذلك القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ ، والقاضي محمد بنب كناب ، وغيرهم من العلماء الذين اشتهروا في عصرهم .

وبعد الأسقياسني علي خلفه ابنه أبو بكر ، الذي تمرد عليه ضابط عسكري من ضباط أبيه وهو محمد توري ، وخلعه من منصبه ، وحل محله غير أن «جني وير» حاكم مدينة جني ، الذي نصبه سني علي أظهر ولاءه لأبي بكر ، وعارض ثورة محمد توري عليه ، وبعد أن فاز هذا الأخير بلقب أسقيا ، وتربع على عرشسنغاي اعتقل هذا الحاكم وسجنه ، الى أن توفي في سجنه .

وقد زار الأسقيا محمد توري مدينة جني وسكن في القصر الذي أقامه سني علي هناك لنفسه وعين بنفسه «موديو» أي حاكم لها ، المسمى الأمين ، نيابة عنه لحكم المدينة ، ومنذ هذا التاريخ أرتبط مصير جني بمصير مملكة سنغاي ، مع المحافظة على نظامها الخاص بها .

وفي تاريخ 27 أكتوبر من سنة 1591 غزى المغاربة مدينة جني وأستولوا عليها وعينوا لها قائدا لتسيير شؤوتها وحدها . ولعل ذلك ما يدل على الأهمية الاقتصادية والبشرية التي وجدها المغاربة عليها ثم خضعت لامارة سيغو حتى سنة 1518 . ثم دخلت تحت سلطة مملكة الحاج عمر (توفي سنة 1865) وأخيرا خضعت للاحتلال الفرنسي سنة 1893 .

3 ـ غـاوو

قبل أن يتخذها الأساقيون كمقر مركزي لممارسة سلطتهم على البلاد التابعة لمملكة سنغاي ، كانت غاوو عبارة عن قرية صغيرة لا شأن لها . وقد بدأت تظهر أهميتها التجارية الاستراتيجية عندما دب الضعف في أركان تادمكت ، واتخذت بدلها كمحطة لوقوف القوافل التجارية ، التي تربط بين شمال القارة الافريقية وغربها مرورا بالصحراء الافريقية .

وقد بلغت غاوو أقصى شهرتها وذروتها الاقتصادية على أيام الأساقيين . وقد كانت عاصمة لسنغاي منذ الأيام الأولى لآل ضياء .

ولقد وصفها الحسن الوزان بالمدينة الجملية ، ويقول أنها مدينة كبيرة ، وتشبه تمبوكتو في بناءاتها ولم يكن لها صور ، وبها قصور الملك وحاشيته ، وسكانها أثرياء وأغلبهم من التجار . وقد يأتيها كثير من الزنوج يحملون معهم كميات كبيرة من الذهب ، وذلك لشراء المواد التي تأتي من أوربا الى المدينة من الجزائر وتونس والمغرب . وهي أكثر تحضرا من باقي مدن السودان .

وفي عهد الأساقيين قدر عدد سكان مدينة غاوو بما يقرب من 75 ألفًا ، بينما لم يقدر عدد سكان تمبوكتو الا بما يقرب من 30 ألفا . وتتجلى أهمية غاوو من حيث كثافتها السكانية لكونها كانت عاصمة الأمبراطورية أكثر من أنها مركز

ثقافي . ذلك لأن أغلب سكانها كانوا من التجار ورجال الدولة أكثرهم من الأساتذة ورجال العلم والطلبة . كما أن أهميتها الاقتصادية اذا قورنت بتمبوكتو فهذه الأخيرة أقل من غاوو . ورغم ذلك لعبت دورا هاما في نشر الثقافة العربية الاسلامية بين الناس في المنطقة . وقد انتشرت الثقافة العربية في غرب افريقيا انتشارا ملحوظا ما بين القرنين 11 و 16 الملاديين وذلك بسبب دخول الاسلام الى هذه المناطق وانتشاره في كل أنحائها ، حتى في تلك المناطق النائية وقد رأينا مثلا على ذلك ، وهو مدينة كونغ التي عثر عليها المغامر الفرنسي بالنيجرفي أعالي نهر النيجر سنة 1889 . وما قيام هذه المراكز الاسلامية في غرب افريقيا الا دليل آخر على تقبلها للاسلام وحضارته .

الفصــــل الـرابــــع

الطرق الصوفية في غرب افريقيا

إن كلامنا عن الطرق الصوفية في غرب افريقيا السوداء ، سيقتصر على الطرق الصوفية الأصيلة التي عملت في المنطقة ، وكان قوامها الدين الاسلامي الحقيقي ، وسنتها سنة القرآن ، وسيرتها مستمدة ومستوحاة من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم . وما كانت هذه الطرق الصوفية التي نقصدها نحن الآن لتخدم الاسلام الحق والثقافة العربية الاسلامية ، بل لتخدم الانسان كإنسان دون أية تفرقة عرقية أو عنصورية ، ودون النظر الى لون جلدته ، كان أبيضا ، أو أصفرا ، أو أسودا أو أحمرا ، فذلك لا يهم في نظر الصوفية الحقة . لذلك لم تحدد الصوفية مكان وزمان عملها ونشاطها ، فنجدها منتشرة ، خلال القرون الأولى ، التي ظهرت فيها ، في كامل المعمورة ، وسعى رجال التصوف الحقيقيون دوما الى تحقيق السعادة الروحية للانسان أينما كان ومن تحققت له السعادة الروحية ، من دون شك ستتبعها

السعادة المادية ، وإن كان رجال التصوف الحقيقيون قد أضربوا على هذا النوع الأخير من السعادة .

ومن يتتبع تاريخ التصوف يقف بنفسه على مواقف مشرفة لرجالاته ، الذين في أغلب الأحيان ضحوا بالنفس والنفيس لبلوغ الهدف الأمثل روحيا وأخلاقيا وثقافيا ، ومن رجال التصوف الحقيقيين من رمي وراءه ، وتخلى عن ملاذ الحياة وترفها وكرس حياته من أجل الثقافة والعلم ونشرهما بين أقوام لا علاقة له بهم ، سوى لكونهم أناسا مثلهم لهم الحق في المعرفة والتنور ، شأنهم شأن الناس الآخرين ، وفي الأصقاع والبقاع النائية في افريقيا السوداء نجد كثيرا من هذه الامثلة .

أما الطرقية الحديثة التي ظهرت هنا وهناك وأنتشرت عبر افريقيا متغبة المال والجاه مستعملة من أجل ذلك أبشع الطرق والوسائل لبلوغ أهدافها المادية المحضة ، والتي لم تتهيب حتى في استعمال الدين الاسلامي الحنيف كوسيلة لذلك ، فليس المجال هنا للتكلم عنها لأنها لا تهمنا في شيء .

لذلك وجب التمييز والفصل بين شيئين مختلفين لا يلتقيان اطلاقا ، وهما الصوفية الأصيلية والطرقية الحديثة ، التي أرادت أن تقلد الأولى و «تحذو حذوها» ولو ظاهرياً فشوهتها وأساءت اليها ، أكثر مما أساءت الى نفسها ذاتها . ثم أن الفرق الجوهري الذي يوجد بين هذين الصنفين من الطرقية الأصيلة أو القديمة ، والحديثة ، أي المعاصرة ، يكمن في أن الأولى

أوجدها رجال أكفاء ، ذوو ثقافة عليا معترف بها من لدن الجميع وبدون استثناء ، وأناس قد استطاعوا بعلمهم الغزير ومعارفهم الواسعة ، وشخصياتهم القوية أن يؤثروا في محيطهم بالصفات العلمية والثقافية قبل أن يؤثروا فيه «ببرهانهم» وبمعرفتهم «للغيب» أو بتحكمهم المتقن «للسحر» . وقلما عمدت الصوفية القديمة الى استعمال هذه الوسائل لتثبيت أقدامها بين الناس . ولكن ذلك ميزة من مميزات الطرقية الحديثة في كل مكان وجدت ، وفي أي زمان عملت .

ومن يقرأ تراجم مؤسسي الطرق الصوفية الهامة التي ظهرت في العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، لأسباب تكاد تكون كرد فعل على تخاذل الحكام المركزيين للدولة الاسلامية ، واستهتارهم بأمور المسلمين ، وعدم شعورهم بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم ، والذين أصبحوا في فترات ما من فترات تاريخ العرب ، غير مبالين بشيء ، لاهم لهم ، سوى اشباع رغباتهم ، التي لا تعرف الشبع ... وارضاء نزعاتهم المادية وغير المادية ، التي لا تقنع ، ولا ترضى بشيء ... ان لا يقف فيها على شيء من الشعوذة أو السحر ، أو غيرهما من الأمور التي عمدت اليها الطرقية الحديثة للاستكان بين الناس والجماعات . ثم أن أغراض هذه وتلك تختلف تماما . فاذا كانت الطرقية الحديثة تنحصر أهدافها في الكسب والاسترزاق ، فان القديمة أو الأصيلة لم يكن ذلك غرضها ، واذا كان الطرقيون المحدثون ، جلهم ، ان

لم نقل كلهم أميين لا يقرأون ولا يكتبون ينحدرون من أوساط شعبية قلما اهتم بعض أعضائها بالثقافة والمعرفة ، خاصة في وقت كانت فيه الثقافة ، لا تغني ولا تسمن من جوع ــ ، فان الطرقيين القدماء كانوا أول ما يقومون به هو تثقيف أنفسهم ثقافة عالية واسعة ، ومن ثم فاتصالهم برجال العلم والمعرفة كان ضروريا .

ولا شك أن ذكر أبي الحسن علي الشاذلي ينبيء في هذا المجال . كما أن عبد القادر الجلاني أو الجلالني هو الآخر يدل على الأشياء وأشياء ، في ميادين شتى من ميادين العلوم والثقافة التي كانت متداولة بين المسلمين في وقته . وأحمد بن سالم التيجاني هو كذلك كان له شأن يذكر ، في الميادين التي سبق ذكرها ، أما ابن محمد بن علي بن السنوسي ، فهو الآخر عند ذكره لا يحتاج المرء إلى تفكير طويل ليتذكر أنه كان لصاحبه ضلع طويل في ميادين العلم والمعرفة المختلفة .

هذه هي الأعلام التي نريد أن يتعرف عليها شبابنا وأن يعرف مواقفها الايجابية والسلبية وينتقي منهاما شاء وما أراد ويأخذ منها ما يجب ، يرد منها ما شاء .

أما عن الطرقية الحديثة أو المعاصرة فبغض النظر عن سلبياتها ، وأعوجاجها ، وعدم استقامتها لبسط نفوذها بين الناس ، حتى اذا أردنا أن نعرف «بأعلامها» و «رجالاتها» فلا نستطيع ذلك لسبب بسيط هو أنه لا «أعلام لها ولا رجالات»

لها كانت لهم مآثر وأثار تستحق الذكر في الميادين الثقافية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وغيرها . وذلك عكس الصوفية الأصيلة التي توفرت في أعلامها ورجالاتها ، كل الشروط التي ذكرناها سابقا .

وبما أن موضوعنا يدور حول الطرق الصوفية ونشر الاسلام في افريقيا السوداء ، وثقافته ، وحضارته فأول طريقة صوفية يجب التعرف عليها ، وعلي مؤسسها بالدرجة الأولى هي : الشاذلية خاصة وأن هذه الأخيرة تعتبر أم الطرق الصوفية في افريقيا بأكملها ، وعنها تفرعت كل الطرق الصوفية الأخرى . ولئن كانت هذه الطرق الصوفية برمتها لم تنبع أصلا من افريقيا ، انما أتت اليها أو جلبها بعض الأفارقة الى أوطانهم ، فانها تربت وترعرعت بين المجمعات الافريقية التي ظن الناس أنها نبعت من وطنهم ومن بين بني جلدتهم وبالتالي فهي في ظنهم جزء لا يتجزء من ثقافتهم وحضارتهم .

ومما يلفت الانتباه أن الافارقة أكثر الأمم تقديسا لديانتهم ورجالها . واذا تعلق الأمر بالمرابطين والأولياء والصالحين وصلوا الى حد المغالاة في الخشوع اليهم وتقديسهم تقدسيا يصل الى حد التصدق وهبة بناتهم وأولادهم الى هذا المرابط أو ذاك ، لما عرف عنه . من تقوى وتفقه في الدين . وقد استغلت الطرقية الحديثة في افريقيا السوداء سذاجة الأهالي وايمانهم الأعمى «بالمرابطين» «والأولياء» ، الى حد كبير وصل بها الى امتصاص أموال الفقراء

والمساكين والعجزة والأرامل ، مستعملة لذلك أرذل الطرق وأبشع الوسائل .

أما أهم الطرق الصوفية التي عملت في غرب افريقيا السوداء فهي كما يلي :

1) ــ الشاذليــة

يرجع تأسيس هذه الطريقة الصوفية الى أبي القاسم الجنيدي الذي تأثر به الشيخ شعيب أبو مدين ألأندلسي (1) الفقيه الشهير الذي انتشر صيته خلال القرن 12 م. في كافة العواصم الاسلامية . وقد تتلمذ على يد الشيخ عبد السلام بن مشيش (2) المغربي الأصل ، ونشر أفكار أستاذه في البلاد ونال بواسطتها شهرة فائقة .

وفي الحقيقة يرجع منبع الشاذلية الى هؤلاء العلماء الثلاثة الذين تأثر بهم الشاذلي ، واستند الى أرائهم وأفكارهم لتكوين طريقة الصوفية المعروفة بالشاذلية ، التي نشرها في افريقيا

---

(1) شعيب أبو مدين الاندلسي : ولد سنة 520 هـ . وتتلمذ في جامعات افريقيا المشهورة . نشر مذهبه في كل افريقيا الشمالية ، دون أن يكون طريقة معينة . توفي في تلمسان . خلف عدة مؤلفات في علوم القرآن والتفسير والفقه .

(2) أبو محمد عبد السلام بن مشيش بن منصور بن ابراهيم الحسن ، عاصر السلطان عبد المؤمن المتوفي سنة 1160 م. وخدمه ، وهو مغربي الأصل عاش خلال القرن السابع الهجري . أغتيل سنة (1127 ــ 1128 م) . وكان مقامه في المغرب كمقام الشافعي في مصر .

الشمالية ، ومنها أخذت طريقها الى غرب افريقيا السوداء ومن هناك ، وصلت مصر ومناطق المشرق العربي خاصة منها مناطق الحجاز ، وتعتبر الشاذلية من أهم الطرق الصوفية ليس في الحجاز فحسب ولكن أيضا في شمال افريقيا ، حيث تفرعت عنها تقريبا كل الطرق الصوفية الأخرى التي عملت في هذه المناطق وغيرها من مناطق افريقيا (1) .

ولد أبو الحسن علي بن عطاء الله بن عبد الجبار الشاذلي الملقب بتاريخ الـذين ، أو تقي الدين في سنة 593 هـ . 1196 م . وتتلمذ الشاذلي على يد أبي محمد عبد السلام بن مشيش الذي بدوره تتلمذ على يد الشيخ أبي مدين .

ويختلف المؤرخون في مكان ولادة الشاذلي ، فمنهم من ينسبه الى مدينة الشاذلية الموجودة بالقرب من جبل زفران بتونس ، وبالتالي يكون قد استمد اسمه واسم طريقته «الشاذلية» من هذه المدينة الأخيرة (2) ومنهم من يذهب الى أنه ولد في قرية غمارة قريبا من سبتة بالمغرب (3) .

ولقد بدأ الشاذلي دراسته في سن متقدمة عن عمره ،

(1) هناك من ينسب الشاذلي الى الحسن بن علي بن أبي طالب . ومن هؤلاء : د/عبد الحليم محمود ص 47 .

(2) أنظر خير الدين الزركلي : الاعلام ، ج 3 ، ط ، 2 ، بدون تاريخ ص 221 .

(3) د/عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف باللغة ، القاهرة 1967 ، ص 16 .

حسب الطريقة التقليدية المعروفة ، فحفظ القرآن ، ودرس السنة والعلوم الدينية وكان «ذا علوم جمة» وصاحب علوم غزيرة . (1) لذلك كان العلم عنصرا من عناصر شخصية الامام الشاذلي ، وكما كان عنصرا هاما من عناصر طريقته (2) .

وتدرج الشاذلي في العلوم شيئا فشيئا ، حتى نال منها قدرا وافرا ، لم يحظ به الا قلة من معاصريه . وكان ينتقي ويختار الكتب التي يدرسها هو نفسه أو يشرحها لطلابه ويحثهم على قراءتها . (3) وكان يلقي دروسا هامة في شرح هذه الكتب يحضرها بعض العلماء ، والطلاب ، وبعض الأحيان حتى العامة . ومن العلماء الذين كانوا يحضرون هذه الحلقات الثقافية التي ينظمها الشاذلي : أبو العباس المرسي ، الذي كان حريصا على حضور كل نشاط ثقافي ينظمه أو يشرف عليه الشاذلي . كما كان الشيخ عز الدين عبد السلام ، هو الآخر حريصا ، على حضور المجالس العلمية والثقافية التي يعقدها الشاذلي . (4) .

(1) عبد الحليم محمود : المرجع السابق ص 51 .

(2) يعتبر أبو الحسن الشاذلي الجهل والرضابة من الكبائر ، اذ يقول : لا كبير عند أكبر من اثنين حب الدنيا بالايثار . والمقام على الجهل بالرضاء .

(3) من الكتب التي كان يدرسها أبو الحسن ويشرحها : كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذي المواقف والمخاطبات للشيخ محمد بن عبد الجبار النفري ـــ ، قوت القلوب لأبي المكي ـــ، الاحياء للامام الغزالي ، الشفاء للقاضي غياض ، وقد نال هذا الكتاب تقديرا كبيرا في أوساط كثيرة ، والمحرر الوجيز لابن عطية ، وكان كتابه المفضل في التفسير .

(4) عبد الحليم محمود . المرجع السابق ص ـــ 59 ـــ 60 .

وقد لمس المؤرخون قديما وحديثا لأبي الحسن هذا الجانب العلمي فاثنوا عليه . وقد حظي هذا الجانب عند أبي الحسن بدراسات كثيرة قام بها مستشرقون أوربيون وأبرزوا الدور الهام الذي لعبه هذا الأخير في هذا الميدان . كما أدرك الشعراء ، من جهتهم ، هذا الجانب الهام عند الشاذلي وما فيه من أصالة وعمق ، فأشادوا به . ومن هؤلاء الامام البصيري صاحب البردة ، الذي يصفه في قصيدة يمدحه بها بأنه «بحر علم» .

أما ابن المبلق فيقول عن أبي الحسن ما يلي :(1)

لقد كان بحرا في الشرائع راسخا
ولا سيما علم الفرائض والسنن .
ومن منهل التوحيد عب وارتوى
فلله كم روي قلوبا بها محن
وحاز علوما ليس تحصى لكاتب
وهل يحصر الكتاب ما حاز من فن .

وقد أنكب الشاذلي منذ صغره على العلم بشغف شديد ، مما أدى الى اصابة عينيه بمرض خطير وربما كان قد فقد بصره من جراء ذلك في ايامه الأخيرة.

ورحل الشاذلي الى بغداد طلبا للعلم ، والتقى هناك بمشاهير علمائها ، الذي حظي بتقديرهم وتبجيلهم له لما رأوا فيه من نباغة وأصالة علمية . ثم عاد الى غمارة مسقط رأسه .

(1) عبد الحليم محمود : المرجع نفسه .

ولكن تكوينه العلمي والثقافي كان قد تلقاه في فاس ، ، علي يد علماء ، أجلاء ، خاصة منهم الشيخ ابن مشيش ، الذي آثرفيه تأثيرا بالغ الأهمية . وبعد وفاة شيخه ابن مشيش بين سنتي (1227 ــ 1228 م.) غادر المغرب الى تونس . ويبدو أن أستاذه ، هو الذي أمره بأن ينتقل الى تونس ، وعين له المكان الذي يذهب اليه : «الشاذلية» ، لكي يستقر فيه وينشر من هناك مذهبه .

وفي تونس أستقر الشاذلي أول أمره في جبل زفران ، أين أنشأ رباطا ، جلب اليه كثيرا من المريدين ، والمعجبين ، وشرع في نشر مذهبه من هناك .

وقد أحرز نشاطه هذا ، في جبل زفران على نجاح باهض ، أنتشر صيته بسرعة بين الأوساط الشعبية ، التي هبت اليه من جهات القطر التونسي ، مما جلب اليه حسد حكام البلاد بعضهم اليه وخاصة منهم قاضي المدينة ابن البرة ، وما كان من الشاذلي الا أن غادر تونس مضطرا الى مصر واستقر قريبا من الاسكندرية ، في مغارة من مغارات شواطئها . وبدأ ينشط وينشر في مذهبه بين الناس هناك . ولكن يبدو أنه لم يجد من يستمع اليه . فغادر الاسكندرية الى القاهرة ، حيث استطاع أن يفرض نفسه كعالم كبير من علماء الاسلام ، خاصة بعد أن حظي بإعجاب علمائها به ، أمثال عز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام ، وشيخ علماء القاهرة .

وقد كان الشاذلي يزور بدون انقطاع البقاع المقدسة سنويا في مواسم الحج ، مخترقا الصحاري القاحلة الممتدة بين مصر ومكة مشيا على الاقدام ذهابا وايابا الى أن توفي سنة 1258 م .

وكما اختلف المؤرخون في مكان ولادته اختلفوا كذلك في مكان وفاته . وعموما تاريخ ومكان وفاته يبقيان غير محددين أو موضوع عدة روايات اختلف فيما بينهما باختلاف مصادرها ومؤلفيها (1) غير أن أغلبيتها تتفق على أنه توفي سنة 1258 م ، كما سبقت الاشارة اليه ، وهو عائد من البقاع المقدسة في الصحاري الفاصلة بين النيل والبحر الأحمر .(2) .

ومهما يكن فبعد وفاته ترك الشاذلي كثيرا من التلاميذ الذين تأثروا به كثيراً أولا كعالم كبير وثانيا كمفكر أصيل ترك بصماته على الميدانيين الفكري والثقافي بين معاصريه ، ونشروا أفكاره في كامل شمال افريقيا وعرفوا بصاحبها بين علماء ورجال العصر .

وقد كان للنشاط الذي قام به تلاميذ الشاذلي في المغرب وتحمسهم لمذهبه ، أن تفرعت عن الشاذلية عدة طرق صوفية في المناطق الممتدة بين الحجاز شرقا واسبانيا غربا ففي مصر

(1) يقول رين في المصدر المذكور أعلاه فيما يخص مكان وفاة الشاذلي ما يلي : «توفي الشاذلي بمكان يدعى ــ حمار نية ــ بجبال مصر العليا شرق منطقة ذراعو ، أين توجد الآن آبار تدعى ،» «بيبار الشاذلية» . بينما يشك في ذلك ديبون وكابولاني دون أن يحددا ان مكان وفاته .

(2) رين : المصدر السابق ، ص 225 ــ 211

تفرعت عن الشاذلية الطريقة الوافية (1) وفي المغرب الاقصى تفرعت الطريقة الدرقاوية وفي ليبيا تفرعت عنها الطريقة المدنية نحو 1450 م .

كما تفرعت عن الشاذلية العروسية ومؤسسها أبو العباس أحمد بن العروس الذي كان قبل ذلك مقدما للشاذلية ، وتلتقي هذه الطريقة بالقادرية ، بحيث تتلمذ مؤسسها على الشيخ أبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي الذي كان هو نفسه مقدما للقادرية .

أما في الجزائر فقد تفرعت عن الشاذلية الطريقة الزروقية .(2) كما تفرعت عن الشاذلية طرق صوفية أخرى ، من الصعب احصاؤها لكثرتها و تشعبها ، في المناطق الممتدة بين الحجاز شرقا والمغرب الأقصى غربا ، وذلك مثل البكرية (3) والحازولية (4) وغيرها من الطرق الصوفية الأخرى .

---

(1) الوافية : مؤسسها هو الامام الحق محمد وافا بن أحمد وافا ، توفي سنة 1310 م ، وقد انتشرت هذه الطريقة في مصر بالاخص نحو 1450 م.

(2) الزروقية : تأسست نحو 1494 م . ومؤسسها هو أبو العابس أحمد زروق البرنوسي ، من قبيلة البرانيس ، التي كانت تقطن قريبا من فاس . تتلمذ علي يد أشهر أساتذة المغرب . باشر في بجاية بالجزائر مهنة التعليم وهو مؤسس مسجد سيدي زكري بتلمسان توفي حوالي سنة 1494 م. في طرابلس الغرب .

(3) البكرية أو البكارية : كان مقرها في مكة المكرمة ، ومؤسسها هو محمد بن أبو بكر . تتلمذ عن الامام زروق السابق الذكر لذلك تدعى أحيانا البكرية الزروقية ، توفي نحو (1503 — 1504) .

(4) الحازولية : مؤسسها هو أبو عبد الله بن أبو بكر الحازلي . نسبة الى مسقط رأسه قرية حازولة في السوس الاقصى . توفي حوالي سنة (1464 — 1465 م.)

وما يهم موضوعنا هنا من الطريقة الصوفية الشاذلية بالنسبة الى غرب افريقيا السوداء ، هو أن جميع الطرق الصوفية التي تفرعت . عنها ، وخاصة منها تلك التي عملت في الجزائر ، وتونس والمغرب الأقصى ، قد امتد تأثيرها شيئا فشيئا الى هذا الجزء من القارة السمراء .

ومن الطرق الصوفية التي تفرعت عن الشاذلية ، وانتشرت في المغرب لتأخذ طريقها بعد ذلك الى غرب افريقيا السوداء نذكر : الرازية .(1) والناصرية (2) ، والغازية (3) ، والشاذلية (4) وغيرها من الطرق الصوفية الأخرى .

وربما الشيء الذي ساعد على انتشار أفكار الشاذلي ،

---

(1) الرازية : ظهرت نحو (1526 م) في وادي الدرع بالمغرب الأقصى ومؤسسها الشيخ الرازي بن أبي القاسم أو أبي الحسن القاسم الرازي . وتتلقي هذه الطريقة بالناصرية والزيانية .

(2) الناصرية أسسها محمد بن ناصر الدرعي في تمرغوت ، في منطقة وادي الدرع بالمغرب الأقصى ثم أخذت طريقها الى كل من الجزائر وتونس أين أنتشرت أنتشارا واسعا . توفي مؤسسها في تمرغوت نحو (1669 م.)

(3) الغازية : نسبة الى أبي الحسن القاسم الغازي ، الذي أنشأ زاوية هامة في وادي الدرع تجمع حوله بعض أنصار الشاذلية وبعد وفاته (1526 م) ، أسس هؤلاء الطريقة الغازية ، تكريما وتخليدا لاستاذهم .

(4) الشابية مؤسسها هو : أحمد بن مخلوف الذي استقر في مدينة شبه على الساحل التونسي بين صفاقس وسوسة ، خلال القرن 11 هـ ، 17 م. وكان شيخ الناصرية هو الذي نشره ابن مخلوف اتجاها آخراً واسما آخراً مغايرين للناصرية كما هو واضح من تسمية «الشابية» .

ورواجها في العالم الاسلامي بأكمله هو أنها سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية تعتبر امتدادا واضح لمدرسة الامام الغزالي (505 هـ ، 111 م) .

وانتشرت الطريقة الشاذلية كطريقة صوفية في المغرب الأقصى خلال القرن الخامس عشر الميلادي على يد أبي عبد الله محمد سليمان الحزولي ، مؤلف دلائل الخيرات الذي زوج احدى بناته الى الشريف أحمد ابي دنانة ، الذي انتقل الى السودان ونشر هناك الطريقة الصوفية الشاذلية . (1) .

وعموما فقد سبقت الشاذلية ، من حيث زمان ظهورها وانتشارها في افريقيا ، كل الطرق الصوفية الأخرى التي عملت في السودان الغربي ، ومهدت بذلك الطريق لظهور الطرق الصوفية الأخرى ، التي أخذت طريقها الى غرب افريقيا السوداء ، كالقادرية والتيجانية والسنوسية . ونحن نؤكد هنا على ظهور الطرق الصوفية وامتداد تأثيرها الى غرب افريقيا لا لغرض ما ، ولكن لأنه كان لها دور في نشر تعليم اللغة العربية ، والاسلام ، وثقافته وحضارته العربية الاسلامية وذلك شأن الطريقة الصوفية الشاذلية الأصيلة .

ـ 2 ـ القادريـة :

انتشرت القادرية في غرب افريقيا السوداء كطريقة صوفية

(1) د/ عبد القادر محمود : الفكر الصوفي في السودان ، القاهرة ، 1968 ، ص 53 .

خلال القرن السادس عشر الميلادي ، وذلك رغم أن تطورها الحقيقي كان في بداية القرن 19 الميلادي ، وخاصة على يد قبائل الحوصة الافريقية .(1) وقبائل الفلان ، التي كانت تقطن حوض السينغال .

ويرجع تاريخ تأسيس القادرية الى القرن الثاني عشر الميلادي ، ومؤسسها هو محي الدين أبو محمد عبد القادر الجيـــــــــلاني بن أبي صالح موسى الحسين (471 ــ 561 هـ)(1079 ــ 1166 م) وهو عبد القادر الجيلالي أوالجيلاني في المشرق العربي والمغرب ، وغيلاني في تركيا .(2) .

ولد الجيلاني في جبل أوجلاني ، قريبا من بغداد وربما استمد اسمه من مسقط رأسه هذا (الجلاني) (3) . وقد نشأ الجلاني وتربى وترعرع في عائلة متواضعة ، ومنذ صغره أبدى من الاستقامة في أخلاقه وتربيته ، ما جعله يكون مضرب المثل بين المجتمع الذي كان يعيش فيه .

وقد انتشرت القادرية في أول أمرها أنتشارا عظيما في كل الأقطار العربية الاسلامية بالمشرق العربي ، وحتى وقت قريب

---

(1) عبد القادر محمود : الفكر الصوفي في السودان ص 31 وما بعدها .

(2) د/ حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام في افريقيا ص 43 .

(3) عمار هلال : مساهمة بعض الشخصيات السودانية في نشر الاسلام في غرب افريقيا الاصالة عدد 88/87 ص 93 ــ 98 .

منا ، كانت تحتل في الحجاز مكانة مرموقة بين الطرق الصوفية التي كانت تعمل هناك لامن حيث عدد أبتاعها فحسب ولكن أيضا من حيث مكانة وقيمة صاحبها الأدبية والثقافية (1) .

ومن الناحية الدينية شكلت القادرية همزة وصل بين العالم الاسلامي وافريقيا السوداء ، وذلك لمدة عدة قرون خلت وعبر هذا الجسر الذي شكلته القادرية بين العالم الاسلامي وافريقيا بصفة عامة أخذت بعض الطرق الصوفية التي ظهرت في المشرق العربي والمغرب طريقها الى القارة السمراء عامة والى جزئها الغربي خاصة .

وترجع علاقة القادرية بغرب افريقيا السوداء الى القرن السادس عشر الميلادي ، وذلك بواسطة جماعة من المهاجرين العرب الذين استقروا مدة في توات ، وبعد ذلك انتقلوا الى المنطقة المذكورة سابقا وقبل ذلك كان هؤلاء المهاجرون قد أتخذوا ولاته المركز الحضاري القديم للثقافة العربية الاسلامية في السودان الغربي أول مركز لهم لنشر الطريقة الصوفية القادرية في المنطقة . ثم أنتقلوا بعد ذلك الى تمبوكتو ، أين واصلوا نشاطاتهم الدينية والتعليمية . علما أن تمبوكتو كانت في هذه الفترة قد وصلت أوج قمتها الثقافية والاقتصادية والعمرانية ، مما ساعد كثيرا الدعاة العرب على نشر هذاالمذهب الصوفي الذي أتوا به الى المنطقة ، وممارسة نشاطاتهم الأخرى الدينية والثقافية ، وخاصة

---

(1) حسن ابراهيم : المرجع السابق ص 44 وما بعدها .

منها التعليمية ، اذ تصادف وجودهم في تمبوكتو ، خلال هذه الفترة مع تطور الحركة التعليمية فيها بشكل كثيف .

وبعد أن توطدت أركان القادرية في الجزء الغربي لافريقيا السوداء أخذت طريقها الى الاجزاء الأخرى للقارة عبر الطرق التجارية التي كانت تسلكها القوافل من تمبوكتو الى الخرطوم الى قردفان ، الى دار رفور ، الى واداي الى بعض امراء وسلاطين المنطقة وذلك مثل سلطنة بورنو وعدة شخصيات من بلاطها مما ساعد كثيرا على توسعها وانتشارها في البلاد .

ولكن التطور الحقيقي الذي عرفته القادرية ، وبالأخص في غرب افريقيا كان في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، الذي نلاحظ خلاله تأثيرا عميقا في مختلف الأوساط والجماعات الافريقية بالمنطقة وقد تعدى هذا التأثير الهام للقادرية الجانب الديني ليصبح «مذهبا» سياسيا واسلاميا غيورا على الاسلام متحمسا على نشره لا يقبل المساس بمبادئه الحقيقية ، من طرف أي كان ولو حدث ذلك من قبل الأمراء والحكام أنفسهم . كما ظهرت مناهضة الأفارقة القادريين ، خلال القرن 19 م ، للاستعمار الأوربي واضحة جلية في المنطقة وكثير منهم من أعلن الجهاد ضده معبئا أتباعه وانصاره ومريديه ، في محاولات عدة للتخلص من نير الاستعمار البغيض . ونلمس ذلك بوضوح عند كل من الشيخ عثمان دان فوديو (ولد سنة 1745) ، والشيخو أحمدو ، ـــ الشيخ أحمد ـــ (ولد سنة

1755) اللذين حاربا طويلا الاستعمار الفرنسي في غرب افريقيا ـــ وجندا له اتباعها وانصارهما الذين قاتلوا المحتلين ، واستبسلوا في قتالهم ، ولولا تفوق العدو عليهم عددا وعدة لناله منهم مالم يناله ظالم جاحد .

ومما يثبت التطور الملحوظ الذي عرفته القادرية ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أنه ظهرت بعض المدن ، في غرب افريقيا وكأنها مراكز للنفوذ الاسلامي في المنطقة بين الوثنيين ، ومن ذلك العواصم المتعددة ، وبعض الأحيان «المتنقلة» التي أتخذها الزعماء الأفارقة كمقرات لفتوحاتهم الاسلامية في المنطقة أمثال عثمان دان فوديو ، والشيخو أحمدو ، والحاج عمر وساموري توري ، وغيرهم من الشخصيات الافريقية التي أتخذت على عاتقها مهمة نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية في غرب افريقيا السوداء .

واذا كان الناس قديما يقبلون على اعتناق مذهب ما من المذاهب الصوفية لما أبداه صاحبه من براعة «التكهن» أو في «السحر» وعلم «الغيب» ففي غرب افريقيا ، في القرون الحديثة رحب الناس بمثلي المذهب القادري ليس باعتبارهم «كهانا» بارعين ، أو سحرة «محنكين»، أو علّام «غيب» نادرين ، وانما باعتبارهم رجال علم متضلعين في شتى العلوم الاسلامية التي كانت متداولة بين المسلمين ، حتى هذا التاريخ ، وفقهاء لا معين ، ومعلمين بارعين .

وقد اعتمد نشاط القادريين الأوائل ، الذين حلوا بغرب افريقيا السوداء ، أساسا على مدى تأثير المعلم في تلاميذه ، ونشر التعليم باللغة العربية في نفس الوقت .

ودعى دعاة القادرية الى الدين والعلم معا ، ولم يفصلوا بينهما قط وكانوا يرسلون من الأفارقة من يود المزيد من العلم والمعرفة ، الى القيروان وطرابلس ، وتلمسان والقاهرة . كما أسس القادريون المدارس وانفقوا عليها وأشرفوا عليها بأنفسهم . وكانت دعوتهم الى الاسلام تعتمد على الاقناع والحكمة والتأثير في المجتمعات الوثنية بطريقة سلمية لامجال للعنف فيها .

ويرجع سبب نهوض الاسلام في القرن الماضي ، في غرب افريقيا السوداء ، بين قبائل الفلان والتكرور ، أساسا الى تطور القادرية في المنطقة ، والى بعض الطرق الصوفية الأخرى التي توطدت أركانها في المنطقة كالقادرية والتيجانية ، وغيرهما وتزعم الحركة الدينية رجال محليون ذوو كفاءة دينية وسياسية ، وعسكرية عالية . وقد سبق أن ذكرنا بعضهم .

ومن دعاة القادرية السودانيين ، الذين لعبوا دورا يذكر في نشر الاسلام والثقافة العربية ، في غرب افريقيا ، في القرن التاسع عشر الميلادي ، عثمان دان فوديو ، الذي أبدى ذكاء فائقا منذ صغره وميلا ملحوظا للاسلام وثقافته ، فتعمق في فهم القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة وتاريخ الاسلام بصفة عامة .

وقضى مراهقته وشبابه متعلما ، في المدارس المحلية على يد شيوخ أكفاء . تخرج معظمهم من الأزهر بالقاهرة .

وقد أساء عثمان دان فوديو ما وصل اليه الاسلام من انحطاط وتحريف من قبل بعض الأفارقة المسلمين وما كانت عليه الوثنية من انحراف خلقي وأدبي لا يتما شيان مع أخلاق وآداب الاسلام وسنته ، فتزعم أتباعه القادرين وأعلن الجهاد على الوثنية المحلية وأخضعها لسنة الاسلام ، وشريعته ، وبما فيها مملكة بورنو ، التي أصبح فيها نائبا للملك والتي اعتلى عرشها ابنه عام 1846 ، وأصبح ملكا لها .

وامتد نفوذ مملكة بورنو القادرية من المناطق الممتدة بين اتشاد الى الكامرون ولم يوقف توسعاتها سوى الغزو الاستعماري الأوربي للمنطقة .(1) وفي مطلع هذا القرن تميزت القادرية عن الطرق الصوفية الاخرى التي كانت تعمل في غرب افريقيا بانضمام الطبقة الثرية الى صفوفها (2) الشيء الذي أعطاها نفسا جديدا ، وزاد من انتشارها وقوتها .

وعرفت القادرية ، في الستينات من هذا القرن ، انتشارا ملحوظا ، خاصة في النسينغال ، حيث تقتسم مع الطريقة

---

(1) كاردير : المرجع السابق ص 60

(2) حسن إبراهيم حسن : ص 45 .

الصوفية التيجانية المليون ونصف المليون من المسلمين السينغاليين (1) .

ولكن القادرية شأنها شأن الطرق الصوفية في كافة العالم الاسلامي ، بدأت تضعف في افريقيا الغربية السوداء في مستهل هذا القرن وتمثلت أسباب ضعفها في الانحرافات التي اتسم بها بعض دعاتها من جهة ، وتراجع بعض زعمائها ، وانتهاجهم أسلوب المهادنة والصداقة ، في كثير من الأحيان ، ازاء الاستعمار الأوربي في المنطقة ، مما ترتب عنه تقريبا اضمحلال القادرية تدريجيا وذوبانها في شكل افريقي ، وذلك في الطريقة الصوفية المريدية . التي أسسها أحمد بامبا ، الذي توفي سنة 1926 .

وتتجه هذه الطريقة نحو الخضوع المطلق لشيخ الطريقة وتعطي أهمية بالغة «للعمل اليدوي» ، «العمل جزء من الايمان» هذا هو شعارها الأساسي . ونلمس من هنا التغير الملحوظ الذي أحدثته هذه «الطريقة الصوفية» ، ان كان لنا أن نطلق عليها هذه الصفة في مذهبها وعقيدتها «الطرقية» .

وقد انتشرت هذه الطريقة خاصة في السينغال وجلبت الكثير من الأنصار الى صفوفها . وتتلمذ صاحب المريدية على يد الشيخ سيديا الموريتاني في بداية هذا القرن ، واستطاع أن

---

(1) نعيم قداح : حضارة الاسلام وحضارة أوربا في غرب افريقيا ص 90 وما بعدها .

يفرض نفسه ويؤثر تأثيرا كبيرا على الجماعات الافريقية بذكائه وعمله وأن يحول القادرية التي توطدت أركانها في السينغال منذ حوالي ثلاثة قرون الى طريقة محلية لها مبادؤها وشعاراتها الخاصة بها .

ومهما يكن أمن أمر فلو لا القادرية لما وجد الشيخ أحمد بامبا ، ولا الشيخ سيديا ، أو غيرهما من الطرقيين الذين كان لهم دور بين الجماعات الافريقية في غرب افريقيا السوداء . وتحويل الطريقة القادرية الى طريقة محلية سينغالية راجع أساس الى تعاليمها «السمحة» اللينة ، التي تلاءمت مع الفرد الافريقي ، تلاؤما كاملا ، فتركت له الحرية في التفكير والابداع والخلق .... وهناك عامل آخر لا يقل أهمية عن هذا العامل الآخير ، وهو الذي تمثل في ضعف شيوخ القادرية ومقدميها ، ثقافيا وأدبيا ، وذلك منذ مستهل القرن الحالي كما كان للعقلية الاسترزاقية التي ميزت الشيوخ والمقدمين القادريين خلال هذا التاريخ بالذات ، دور في انحلال الطريقة القادرية ، فضلا عن انحلالهم الخلقي الذي فتح باب الصراع واسعا ، أمام منافسيها ليطيحوا بها بكل سهولة ذلك ما يفسره اضمحلالها واندثارها ، في أقل من ربع قرن من الزمن ، بعد أن كانت أركانها قد توطدت في المنطقة منذ ثلاثة قرون خلت .

وربما كانت القادرية أوسع الطرق الصوفية انتشارا في العالم الاسلامي ، وذلك لما كان لصاحبها من كفاءة علمية وأدبية ،

حيث برع الجيلاني في علوم الحياة ، حتى أعجز أصحاب العقول ، ثم طوى كل ذلك وأخذ يعبر بروحه الى العالم غير المرييء . وقد أعتزل الجيلاني ما يقرب من 25 سنة في صحراء العراق ، لا علاقة له مع الناس ، لا يعرفهم ولا يعرفونه . ثم عاد الى بغداد ينشر العلم . وكون تلاميذ أكفاء هناك . وتحداه بعض علماء بغداد ، واستطاع في آخر المطاف بذكائه وعلمه وفطنته أن يفرض نفسه بينهم ، في جميع الميادين . ويذكر له المؤرخون مباديء حاسمة في حياته ، من ذلك أنه اذازاره الخليفة في منزله المتواضع يخرج قبل قدومه ثم يعود حتى لا يقوم للخليفة ، وكان يقول عن ذلك :«أفعل هذا استصغارا للدنيا واعزازا للفقراء وأهل الله في نظر الناس ...» (1)

وقد دخلت القادرية السودان الشرقي حين قام تاج الدين البهاري بزيارة الى المنطقة في أوائل سلطنة الفونج . وقد قدم الى المنطقة استجابة الى دعوة أحد التجار الأثرياء الذي التقى به في مكة أثناء موسم الحج . ومنذ ذلك الوقت توطدت أركانها في المنطقة ، واعتنقها كثير من الأفارقة كطريقة صوفية ، وبلغت أوج انتشارها في هذا الجزء من افريقيا ابان القرن الماضي .

وقد تفرعت القادرية الى فرعين في السودان الشرقي أحدهما ينسب الى السيد عبد القادر الجيلاني وذلك بواسطة

---

(1) عبد الباقي سرور : شخصيات صوفية ، القاهرة ط 1 1948 ص 167ـ171.

تاج الدين البهاري ، والآخر يتصل بالشيخ السماني ، وقد تتلمذ على هذا الاخير الامام المهدي وأخذ عليه الطريقة السمانية (1) . ولا يخفي عن أحد ما قام به المهدي من مجهودات دينية وثقافية واصلاحية في المنطقة . كما أنه لا تخفى عن أحد الثورة التي فجرها في وجه الاحتلال الانجليزي للسودان الشرقي . وثورته هذه في الحقيقة ، ما هي الاثمرة من ثمار الصوفية الاصيلة .

3 ــ التجانيــة :

تأسست التجانية في عين ماضي التي تبعد عن مدينة الأغواط بالجزائر بحوالي 17 كلم ، وقد اشتهرت عين ماضي حينئذ بين المدن الصحراوية ، خاصة بالحركة الثقافية التي دبت فيها ، بفضل العلماء الذين كانوا يفدون عليها من جميع نواحي افريقيا الشمالية ، وقد تعاطى فيها بعضهم مهنة التعليم غير أن شهرتها لم تكتمل الا بتأسيس الطريقة الصوفية التجانية فيها (2) .

تأسست الطريقة الصوفية التجانية على يد أحمد بن محمد

---

(1) د/عبد القادر محمود : الفكر الصوفي في السودان ص 51 .

(2) عبد القادر محمود : المرجع نفسه .

(3) سيكرج العياشي أحمد بن الحاج : كشف الحجاب عمن تلاقي مع التجاني من الاصحاب ، مطبوع بالطبعة الحجرية ، فاس 325 هـ ص 5 وما بعدها .

ابن المختار بن سالم التجاني الذي ولد في سنة (1150 هـ) ، (1737 ـ 1738) م) بعين ماضي وقد أبدى التجاني منذ طفولته ذكاء فائقا ، وامتاز بالأخلاق الفاضلة وتربى تربية بين عائلة محافظة جد متمسكة بعقيدتها الاسلامية . وكان أبوه عالما فقيها في الدين .

وقد حفظ التجاني القرآن حفظا متينا في خلال سبعة أعوام على الأستاذ أبي عبد الله محمد بن أحمد التجاني . ثم عكف على طلب العلم ، فتلقى مبادئه على يد أساتذة أجلاء في عين ماضي وغيرها ، الى أن نبغ في علم الشريعة ، ثم مال الى دراسة الطرق الصوفية والبحث على المعارف الالهية والأسرار الخفيفة ، على حد تعبير مترجمة . ثم سافر في طلب ذلك من بلد الى آخر حتى بلغ غايته .

وقد زوجه أبوه عند بلوغه ، ودام زواجه هذا ما يقرب من سنة واحدة . ثم طلق امرأته الأولى ، وتزوج من أمرأتين أشتراهما ، بعد أن اعتقهما وهما : السيدة الغالية والسيدة مبروكة فالأولى خلفت له محمد الكبير والثانية محمد الحبيب .

وكثيرا ما لوحظ عن التجاني أنه كان يشتري العبيد ثم يحررهم وتذكر المصادر أنه في يوم واحد اشترى نحو 25 عبدا وأعتقهم . وكلما طلب منه شراء عبد أو أمة لوجه الله ، فعل ذلك بدون تردد (1) .

(1) سيكرج العياشي : المصدر السابق ص 10

وقد فقد التجاني أباه وأمه في يوم واحد بوباء الطاعون ، ودفنا معا بعين ماضي ، سنة 1166 هـ (1752 ــ 1753 م.) .

وكان التجاني قد بلغ السادسة عشر من عمره ، وتمكن من العلم بما يكفيه من متابعة مهمة أبيه فخلفه لمدة خمس سنوات معلماً . ثم غادر عين ماضي بين سنتي (1757 ــ 1758 م) الى فاس يطلب العلم ، فلازم هناك شيوخها وعلماءها الأجلاء ينهل من منابع العلم والمعرفة .

وكان التجاني محبا شغوفا بالمعرفة يطلبها في كل مناسبة ، وفي كل زمان ومكان ، من ذوي الخبرات والاطلاع من الذين سبقوه الى الميدان من ذلك أنه التقى في ضواحي تونس ببعض العلماء والعارفين (من ذوى الكشف الصريح والفتح الصحيح) ، على حد تعبير مترجمه ، ورغم أن المكان والزمان كانا غير مناسبين ، شرع التجاني في طرح عدة قضايا فكرية وعلمية على هؤلاء العلماء العارفين ، الذين التقى بهم ، خوفا منه ، أن تضيع الفرصة منه وأن لا يلتقي بهم مرة ثانية . وكان التجاني آنذاك شاذلي المذهب . حتى أن هذا الموقف منه ، أذكى في مترجمه الاعجاب والتعجب فانشد يقول : (1) .

ياطالب الأسرار من أربابها ويريد بين الخلق أن يحظى بها

(1) سيكرج العياشي : المصدر السابق ص 13

هذا التجاني من تمسك في الوردي بحباله يحظى بما يرضى بها
ما أمه أحد لنيل سعادة الا غدا في الحين من أربابها .

وبعد أن مكث التجاني مدة في فاس دارساً ومدرسا غادرها ليعود الى عين ماضي مسقط رأسه ثم رحل منها مرة ثانية الى البيوض سيدي الشيخ ، ومكث بها مدة من الزمن ، يدرس ويدرس ثم انتقل منها الى تلمسان بين سنتي (1767 — 1768 م) حيث تعاطى مهنة التعليم هناك ، وذلك لعدة سنوات .

وفي سن السادسة والثلاثين من عمره حج التجاني حجته الأولى ، وكان ذلك بين سنتي 1772 — 1773 . وقد أدهش علماء مكة بعلمه ، وسعة اطلاعه ، ونال بين رجالها شهرة. فائقة .

وكان أول أستاذ للتجاني شيخ قادري ، وهو الشيخ أحمد ابن حسان من مدينة فاس ، ثم تتلمذ على يد مولاي الطيب نفسه زعيم الطريقة الطائبية ، ثم تتلمذ على شيخ آخر كان مقدما للناصرية ، وهو الشيخ محمد بن عبد الله ، ثم تتلمذ على الشيخ محمود الكردي بالقاهرة . وقد يكون هذا الأخير هو الذي أشار عليه أن يكون طريقة صوفية خاصة به ، لما رأى فيه من نباهة وذكاء وفطنة وعلم وسعة واطلاع .

وتعتبر سنة (1777 — 1778) بداية لنشر الطريقة الصوفية التجانية ، وذلك إنطلاقاً من مدينة فاس المغربية ، التي

كان التجاني قد عاد اليها مرة ثانية ، ومكث بها ما يقرب من 18 سنة داعيا الى مذهبه في المناطق الصحراوية الفاصلة بين توات والسودان الغربي وتونس ، ولنشر طريقته عمد التجاني الى تأسيس زاوية في كل مكان يحل به ، وعين لها مقدما يأمره بنشر طريقته . وقد أسس زاويته الأولى بفاس سنة 1215 هـ . في حي البليرة (أو حومة البليرة) . وقبل تأسيسها كان الناس يجتمعون به أمام داره أو في بعض مساجد المدينة .

وقد سلكت التجانية تقريبا نفس الطريق الذي سلكته قبلها الطريقة القادرية ، التي سبقتها في الظهور ، وأتخذت من الجسر الذي أقامته هذه الأخيرة بين العالم الاسلامي وغرب افريقيا معبراً للمنطقتين . وقد نظر اليها الناس بعين ملأها الرضى ، خلال القرن الثامن عشر الميلادي ، ذلك لأنها خلافا لبعض الطرق الصوفية الأخرى ، امتازت التجانية بتعاليمها البسيطة ومذهبها الواضح ، الذي كان قريبا جدا من التفكير الشعبي السائد آنذاك في جميع أنحاء العالم الاسلامي .

وفي بعض الأحيان كان انتشارها ، وبالأخص في غرب افريقيا السوداء ، على حساب عدة طرق صوفية ، كانت قد سبقتها الى هذه المناطق ، وخاصة منها القادرية ، وذلك لأن التجانية قد امتازت بديناميكية أكثر فعالية وحيوية من القادرية . أو غيرها من الطرق الصوفية الأخرى التي التقت بها ، وعملت معها جنبا الى جنب ، في منطقة جغرافية واحدة .

وقد ظهرت التجانية في أول أمرها ، في غرب افريقيا السوداء ، بواسطة محمد الحفيظ ابن مختار بن الحبيب الملقب بادي ، والذي كان قد زار التجاني في فاس سنة 1780 م. وقد أخذ هذا الأخير تعاليم ومباديء التجانية من صاحبها نفسه ، وقام بدعاية هامة لصالحها في المنطقة وقبل وفاته سنة 1830 استطاع بادي هذا أن ينشر التجانية بين أفراد قبيلته ، حيث اعتنقها جميعهم ، كمذهب صوفي ، كبيرهم وصغيرهم على حد سواء .

وكان للتجانية أكثر من دور ، خاصة في غرب افريقيا السوداء بحيث لم يقتصر دورها على الجانبين اللذين ذكرناهما سابقا ، و هما : الديني والاجتماعي ، ولكن تعدى ذلك ليشمل ميادين عدة ، منها الميدان السياسي ، الذي ساهمت فيه بظهور عدد من الدويلات ، والامارات التي استندت أساسا على تعاليمها ومبادئها لاعلان قيامها ، وذلك مثل دولة الحاج عمر (1798 — 1865) ، ودولة الشيخو أحمدو ، وغيرهما من الدول الافريقية الحديثة التي ظهرت في غرب افريقيا خلال القرن التاسع عشر ، التي لم يكتب لها النجاح ، ولم تعمر طويلا بسبب تخريب الاحتلال الفرنسي لها .

وعرفت التجانية انتشارا لا بأس به في السودان الغربي عامة وفي السينغال والمناطق المتاخمة له خاصة ، وذلك بعد مدة

قصيرة من تأسيسها (1) . غير أن التطور الهام الذي عرفته يرجع الى عهد الحاج عمر الذي عزم على نشر الاسلام بين الوثنيين في افريقيا بأكملها ، وأعلن الجهاد ضد الوثنية المحلية ، التي تحالفت مع الاستعمار الفرنسي ، فاضطر الحاج عمر الى الكفاح على جهتين ، وذلك في سنة 1848 ، بعد ما أعد العدة لذلك . وقد حج هذا الأخير سنة 1816 ، وانضوى تحت لواء التجانية وأصبح مقدمها في غرب افريقيا سنة 1820 م .

وتجول الحاج عمر في مصر وبلاد بورنو وسكتو ، وعلى غرار عبد الله بن ياسين أسس رباطا في فوتاجالون والتف حوله الأنصار شيئا فشيئا ، ولما تقوى ساعده أعلن الجهاد ضد الوثنية في المنطقة ولم يوقف حركته هذه سوى الاحتلال الفرنسي .

وبحركة الحاج عمر بلغت التجانية أقصى انتشارها في غرب افريقيا السوداء . وذلك باستثناء بعض المناطق التي بقيت بعيدة عن تأثيرات حركته مثل شمال السينغال وموريتانيا ، التي اتخذتها القادرية معقلا لها .

وبين سنتي : 1825 ـ 1830 ، انتشرت التجانية في مملكة سوكوتو ثم أخذت طريقها من هناك الى السودان الغربي . ثم غزى الحاج عمر عاصمة البامبارا الوثنية الواقعة في منطقة

(1) عبد القادر محمود : الفكر الصوفي في السودان ، المرجع السابق ص 199 .

نيورو واستولى عليها في سنة 1854 ، ومن هناك توجه نحو القادريين في ماسينا واستولى على عاصمتهم «حمد الله» .

أما في شرق اتشاد فقد عرفت التجانية انتشارا بفضل حركة الحاج عمر الديناميكية ، وخاصة قبل ظهور السنوسية في المنطقة . ولكنه على ما يبدو تراجعت تدريجياً أمام السنوسية بعد ظهورها في المنطقة .

وقبل أن تظهر التجانية في غرب افريقيا السوداء ، كانت قد انتشرت انتشارا باهرا وذاع صيتها في كامل المغرب وخاصة خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي . وقد اقلق هذا الانتشار الذي حققته التجانية في الجزائر باي وهران محمد الكبير . فهاجم عين ماضي ، وأستولى عليها وفرض عليها ضريبة سنوية في سنة (1784 — 1785). وبعد مضي سنتين على هذه الحملة ، شن عثمان باي ابن محمد الكبير حملة أخرى على عين ماضي مطالبا بالضريبة التي فرضها أبوه على المدينة .

ونحو سنة 1789 غادر التجاني ، مؤسس الطريقة ، عين ماضي نهائيا ليستقر في مدينة فاس ، ويبدو أنه كان للأتراك دخل في ذلك . وقد توفي في 19 سبتمبر 181. م. بعد أن زار مرة أخيرة مسقط رأسه عين ماضي .

وقد ترك التجاني ولدين ، وهما : محمد الكبير ومحمد الحبيب ، واستطاع هذا الأخير نشر مذهب أبيه وعززه بانصار جدد .

وفي هذه الحقبة التاريخية اتجهت انظار التجانيين خاصة الى افريقيا الوسطى ومنطقة التوارق والسودان الغربي . ولم يقتصر نشاطهم على بعث الدعاة فحسب ، ولكن اتخذوا من التجارة وسيلة لنشر طريقتهم فانشأوا قوافل تجارية كانت تخترق الصحاري من أدرار الى تمبوكتو ثم سيغو ومنها الى السينغال ذهابا وايابا . ووفروا لها كل الشروط المادية والأمنية .

وقد تدفقت الخيرات على عين ماضي ، خاصة بين سنتي : 1830 — 1843 . وكانت هذه التجارة المزدهرة التي أقامها التجانيون بين عين ماضي «عاصمتهم» وغرب افريقيا السوداء والمحافظة عليها وعلى الأرباح الهائلة التي يجنونها منها سبباً من الأسباب الهامة التي جعلتهم يرفضون مد يد المساعدة ، ولو معنويا ، للأمير عبد القادر الجزائري عندما طلب منهم ذلك وهو الشيء الذي اضطر الأمير ان يحاصر عين ماضي في سنة 1839 ، محاولا اكتساب التجانية الى صفوفه ولكن بدون جدوى .

وفي سنة 1840 وضع محمد الصغير يده في يد الماريشال فالي ، ضد الأمير وهكذا انتهى دور التجانية في الجزائر ، بانتهاء مؤسسها ، ومن هذا التاريخ هادنت الاستعمار الفرنسي في الجزائر وأبدى نحوه المشرفون عليها ومقدموها من كل انحاء الوطن طواعية كبيرة أصبحت بمرور الوقت ميزة من مميزاتهم الخاصة حتى أصبحت في الثلاثينات من هذا القرن عبارة عن

جسم بلا روح ، لا دور يذكر لها سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو ثقافيا ، مما أدى بالضرورة الى تقلص اتباعها في الوطن ، خاصة بعد انتقال المشرفين عليها الى فاس ، التي اتخذوها كمقر دائم لهم . واقتصرت زيارتهم الى عين ماضي ، على جمع التبرعات والصدقات واقامة بعض الولائم الدينية ، كان الغرض منها الاسترزاق لا غير .

أما الدور الذي لعبته في غرب افريقيا السوداء ، فقد اختلف تماما عن الدور الذي قامت به في الجزائر ، اذ في نفس الفترة التي تدهورت فيها أوضاعها من جميع النواحي في الجزائر ، أزدهرت أوضاعها في السودان الغربي وظهرت بمظهر القوة والتأثير في جميع الأوساط الافريقية . واذا كان دورها السياسي في الجزائر يكاد لا يذكر ففي غرب افريقيا السوداء لعبت دورا لا يستهان به ومما يدل على ذلك قيام عدة دول محلية بتأثير منها وبقيادة الزعماء الافارقة التيجانيين ، وقد سبق أن ذكرنا البعض منهم .

4 ــ السنوسية :

أسس الطريقة الصوفية السنوسية محمد بن علي ابن السنوسي الخطابي الادريسي المجهري . وقد ولد الشيخ السنوسي في سنة 1202 هـ (1787 ــ 1788 م) بالقرب من مستغانم في دوار طرش الموجود بين قرية سيرات وجبل ينارو ، أي في دائرة يلل الحالية .

ومنذ صغره كان السنوسي شغوفا بالعلم وتلقى تعليمه الابتدائي في مستغانم على يد أساتذة اشتهروا بكفاءتهم وعلمهم ، أمثال بلقندوز المستغانمي . ثم أنتقل الى مازونة أين زاول تعليمه على يد الشيخ بن شارف المازوني . ومنها رحل الى معسكر أين تتلمذ على عالمها الشهير أبي راس الناصري . ثم غادر معسكر الى مدينة فاس بالمغرب الأقصى . ومالبث أن أشتهر هناك بين علمائها بقدرته العلمية وسعة اطلاعه في غير ميدان من ميادين العلوم الاسلامية .

وفي سنة 1829 ، بينما كان الحصار الفرنسي مضروبا على الجزائر ، غادر السنوسي فاس نحو الحجاز لتأدية فريضة الحج . وشأن المهتمين بالعلم والمعرفة ، أنتهز السنوسي الفرصة ، وهو في الحجاز ، ليأخذ ما تمكن له أن يأخذه من علم ومعرفة على الشخصيات العلمية الكثيرة التي أحتك بها هناك . وعند رجوعه زار عين ماضي ، معقل التجانية ، وكانت أنذاك في عز ازدهارها من جميع النواحي . ومكثت مدة زمنية بالأغواط ، كرس فيها أوقاته للتدريس ومنها رحل الى بوسعادة ، حيث تزوج ، وهذا في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تحتل الجزائر (1830) .

ولم تسمح الظروف السياسية التي كانت تمر بها الجزائر للشيخ السنوسي أن يستقر بالبلاد ، ويبدو أنه غادرها مضطرا الى مصر عبر تونس . ولم تمض على حلولة بمصر مدة قصيرة ،

حتى فرض نفسه بين علمائها وأثبت جدارته كمصلح ديني وعالم كبير ، ومن هناك رحل الى مكة .

وفي مكة اتصل الشيخ السنوسي بأحمد بن ادريس شيخ القادرية هناك ، وتتلمذ عليه مدة من الزمن . واثر وفاة هذا الأخير انقسم القادريون على أنفسهم الى طائفتين مضادتين لبعضهما البعض ، وتزعم السنوسي آنذاك احداهن .

وبسبب اضطهاد لاتزال للوهابيين في المنطقة أضطر السنوسي أن يغادر الحجاز في سنة 1843 . ويبدو أنه كان وهابيا من أعماق قلبه ، ولكنه لم يجاهر بذلك .

وقد أسس السنوسي زواية له في الحجاز بأبي قيس ، وبعد أن غادر المنطقة وضعها تحت ادارة اتباعه المخلصين . والتحق بالجبل الأخضر بليبيا أين أسس زاويته الأولى في المنطقة المعروفة بالبيضاء ، على الطراز العربي ، ووضع لها سلما عسكريا محكما . الى جانب طابعها الديني السياسي (1) .

وبعد بضع سنوات انتشرت الزوايا السنوسية في الجبل الأخضر ، والمناطق المجاورة له وأسست عشرات الزوايا في المنطقة . ثم أخذت السنوسية طريقها الى الجنوب التونسي عبر الصحراء الليبية ، وأنتشرت بسرعة في مصر ثم الحجاز .

(1) أبو راس الناصري : مؤرخ وعالم كبير (1823 — 1751) ، توفي بمعسكر ، وقبره موجود هناك اهتم بتأليف المستشرقون الفرنسيون ، منهم العسكري الفرنسي أرنو ، الذي ترجم بعض ماكتبه في المجلة الافريقية .

ووصلت السنوسية الى عين صالح في الجنوب الجزائري ، ثم غدامس وتوات ، ثم مناطق الطاسيلي ومن هناك أخذت طريقها نحو السودان الغربي ، أين نافست الطريقتين الهامتين اللتين كانتا تعملان هناك ، منذ زمن طويل ، وهما : القادرية والتجانية ، وأنتشرت في بعض مناطق البلاد ، على حساب هاتين الطريقتين ، مما يبين قوة حجتها وقدرتها على اقناع أهل البلاد ، اقناعا جعلهم يتخلون في بعض الأحيان عن طرق صوفية كانوا قد انخرطوا فيها ، منذ زمن قديم ، أبا عن جد ، ويعتنقونها كطريقة صوفية .

وفي سنة 1855 غادر الشيخ السنوسي ، الجبل الأخضر الى واحة جغبوب ، في الصحراء الليبية ، أين اسس زاوية كبيرة انتشر صيتها في كامل افريقيا الشمالية والغربية (1) وهي زاوية جغبوب الشهيرة ، التي أستقر بها حتى وافته المنية سنة 1859 .

وتقع زاوية جغبوب هذه ، على بعد 236 كلم ، من بادية سليمان بليبيا . وقد قام ببنائها أصحاب السنوسي تحت اشرافه ولحرصهم على العمل والعلم معا ، كانو يبنون نهارا ويتعلمون ليلا ، حتى ساعة متأخرة منه . ولأهميتها ، وموقعها الممتاز اتخذها الشيخ السنوسي مقراً لدعوته عام 1273 هـ . وظلت كذلك الى عام 1312 هـ (2) .

(1) جامعة السيد بن علي السنوسي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(2) نعيم قداح : المرجع السابق ص 90 .

وقد الحق السنوسي بزاوية جغبوب معهدا علميا ينتسب اليه المتخرجون من كتاب الزوايا . وبالاضافة الى الدروس العلمية ، التي كان الطلبة يلتقونها في هذا المعهد ، كانوا يتدربون على الرماية . وركوب الخيل ، واستعمال السلاح ، وانتاج الذخيرة ، وممارسة الرياضة بمختلف أنواعها وتخرج من هذا المعهد كثير من العلماء والشعراء والفرسان وحفظة القرآن . وقد كانت للمعهد مكتبة زاخرة حوت كثيرا من الكتب والمخطوطات النادرة التي كان يجمعها الامام السنوسي أثناء رحلاته (1) .

كما أقام السنوسي في جغبوب مطاحن للغلال ومعاصر للزيتون وأفرانا ومتاجر ، ومصانع للحياكة والنسيج ، ومصانع للبارود . وبعد 1312 هـ انتقل المركز الرئيسي للدعوة السنوسية من جغبوب الى الكفرة ، ولكن ذلك لم يمنع جغبوب من أن تبقى مركزا اشعاع للدعوة السنوسية ، حتى خربها الاستعمار الايطالي ، ونسف معهدها ومكتبتها سنة 1926 (2) .

وكانت جغبوب كعبة للزوار رواد الثقافة ومركزا هاما لالتقاء القوافل . وقد مكنها موقعها الجغرافي الهام . بأن تكون حلقة وصل لطريقين هامين أحدهما لقوافل شمال غرب افريقيا ،

---

(1) «يذهب بعض المؤرخين ، الى أن سبب مغادرة السنوسي يرجع الى خلافه مع حكام مكة المحليين بينما يشير بعض الآخر الى أن الاتراك هم الذين طردوه منها ...»

(2) جامعة السيد أحمد بن علي السنوسي : المرجع السابق ص 64

والآخر يربط سواحل البحر الأبيض المتوسط بالواحات الداخلية المنتشرة في قلب الصحراء (1) .

وقد استطاعت السنوسية ، في وقت وجيز ، أن تقضي على روح التنافر والعداء الذي كان سائدا بين القبائل ، وغرست في نفوس طلابها القيم الفردية والجماعية ، وحررت جموعا كثيرة من الزنوج العبيد ، الذين كان لهم بعد عتقهم أثر ملحوظ في نشر تعاليم السنوسية في ربوع افريقيا الغربية السوداء (2) .

ووصلت السنوسية في الجزء الغربي من القارة السمراء ، حتى نيجيريا الشمالية ، حيث كان لها نشاط ملحوظ ، خاصة في مقاومة الرقيق ، ولعب السنوسي نفسه دورا هاما في تحرير الزنوج من العبودية ، حيث كان يشتري الرقيق ويعلمهم في زاويته (جغبوب) اللغة العربية ، والفقه وأصول الدعوة الاسلامية ، والقرآن الكريم ، ثم يحررهم بعد أن يجعل منهم دعاة الدين الاسلامي وقد تركز نشاطه هذا بصفة خاصة على واداي ومناطقها باتشاد . ومن ذلك الوقت أصبحت جغبوب قبلة الواديين . وسلطان واداي نفسه قد اعتنق السنوسية كمذهب صوفي .

---

(1) جامعة السيد أحمد بن علي السنوسي ص 64

(2) المرجع نفسه : ص 46

ومما يلاحظ على السنوسية أنها تأثرت بالحركة الوهابية ، واستطاع صاحبها ، أن يكيف تعاليمها ويجعلها تتماشى مع الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية للمناطق التي أنتشرت فيها في غرب افريقيا السوداء .

وكان لكل زاوية سنوسية مقدمها ، أو شيخها ، ووكيلها وخدامها ومعلموها . وكانت كل زاوية تخصص دروسا للكبار ، وتعلم الأطفال الرحل مباديء الدين الاسلامي وشريعته . وقد تفرعت عن السنوسية ما يقرب من 64 طريقة صوفية .

ويبدو أن هذا الانتشار الكبير ، الذي عرفته السنوسية يرجع الى بساطتها في مبادئها وتعاليمها من جهة ، وتسامحها ازاء الطرق الصوفية الأخرى ، وذلك عكس القادرية مثلا ، التي لا تسمح لأنصارها اعتناق مباديء الطرق الصوفية الأخرى ، من جهة أخرى (1) .

ورغم هذا الانتشار الواسع الذي عرفته السنوسية وغيرها من الطرق الصوفية الأخرى في غرب افريقيا السوداء ، يذهب بعض المؤرخين الفرنسيين ، الى أن هذه الأخيرة لم تلعب أي دور كان ، ولم تكن لها أية أهمية ، تذكر وذلك على كل

---

(1) د/ عبد القادر محمود ص 56 وما بعدها .

(2) قارن بين : نعيم قداح ، المرجع السابق ص 92 ، وعبد القادر محمود ص 56 المرجع السابق .

المستويات العقائدية والثقافية والحضارية منها . (1) ولكن الحقيقة ليست كذلك تماما لأننا اذا أخذنا للرد على ما يزعمه هؤلاء الكتاب الفرنسيون ، مثلا السنغال ، نجد مجموع سكانه من المسلمين في الستينات من هذا القرن (1.781.000) يتوزعون على أهم الطرق الصوفية التي تعمل في البلاد (2) وبمعنى آخر نكاد لا نجد في السينغال «مسلما واحدا» يخرج عن نطاق التصوف في البلاد وتقريبا كل السينغاليين المسلمين ينتمون الى طريقة صوفية ما ، مما أوجد معه ارتباط وثيقا بين الدين الاسلامي والطرق الصوفية في البلاد . ومن هناك يمكن القول بأن الطرق الصوفية هي «الركيزة» الاساسية التي يعتمد عليها الاسلام في السينغال . وما يقال عن السينغال يقال كذلك عن أقطار كثيرة في غرب وشرق افريقيا السوداء ، وبالأخص عن الجزء الأول من هذه القارة .

والحق أن الطرق الصوفية في غرب افريقيا السوداء ، تعتبر من أهم العوامل التي ساعدت على تأسيس المجتمع الاسلامي الحديث ، بحيث لعبت دورا لا يستهان به في استتباب السلم بين القبائل الافريقية ، وقام المرابطون وشيوخ الزوايا ومقدموها في

(1) تقدر احصاءات 1882 اتباع السنوسية بـ 30 مقدماً و 481 اخواناً . أما احصاءات 1895 فتقدرهم كما يلي : شيخ واحد و 20 مقدماً و 950 اخوانا ، أي بزيادة ما يقرب من 450 من الاتباع ، وهذا في الجزائر وحدها . (عن ديبون وكابولاني ، المرجع السابق ص 564) .

(2) عبد القادر محمود : نفس الصفحة السابقة .

كثير من الأحيان ، بدور الوسطاء من أجل حل المشاكل والمنازعات داخل القبيلة الواحدة وخارجها . ودافع زعماء الطرق الصوفية على المستضعفين والمضطهدين . كما قاموا بدور هام في تطوير المبادلات التجارية مع توفير الأمن لذلك . (1) وقدموا الاعانات للفقراء والعجزة ، حيث كانت الزوايا ملجأ لهؤلاء ، ومن الطرق الصوفية من تطلعت الى تطوير التعاون والتضامن بين أعضاء الطرق الصوفية الأخرى (2) وكان منهم المعلمون والدعاة للثقافة العربية الاسلامية .

ويتجلى دور الطرق الصوفية واضحا في غرب افريقيا السوداء في ميدان التعليم ، وذلك من خلال الكتاتيب القرآنية والمدارس العربية التي أقاموها في المنطقة . (3) وأشرفوا عليها بأنفسهم وأنفقوا عليها ونشروا العلم للعلم فقط ، دون أي غرض آخر (4) .

كما يتجلى الدور الثقافي الذي قامت به الزوايا والطرق

---

(1) قدرت الاحصاءات الفرنسية عدد المنتمين الى الطرق الصوفية من المسلمين في السينغال في الستينات من هذا القرن كما يلي : من بين 1.782.000 مسلماً ، مليون نسمة منهم منخرطون في الطريقة التجانية و 000 423 ينتمون الى الطريقة المريدية و 304.000 الى القادرية و 23.000 ينتمون الى طرق مختلفة .

(2) أنظر من سبق عن السنوسية .

(3) أنظر ما سبق عن التجانية

(4) راجع ما سبق عن السنوسية .

(5) نعيم قداح : افريقيا الغربية في ظل الاسلام ، ص 24

الصوفية في غرب افريقيا من خلال عدد الكتب التي حوتها بعض مكتبات هذه الزوايا . وقد قدر عدد كتب مكتبة زاوية تمرغوت في سنة 1905 بما يقرب من 10.000 كتاب ومخطوط ، شكلت السند الأساسي لأنتشار الثقافة العربية الاسلامية في المنطقة في وقت كادت فيه أن تنطفي كل معالم هذه الثقافة .

وفي الميدان التجاري قدمت الزوايا الحراس والمرافقين للقوافل التجارية وذلك حتى وصولها الى توات وتمبوكتو ، كما كانت الزوايا تشكل مأمنا عن اللصوص وقطاع الطرق ، حيث كانت تختزن فيها البضائع التجارية الى حين نقلها الى أماكن بيعها .

ولعل أهم حدث تاريخي عرفته افريقيا السوداء ، عبر القرون هو دخول الاسلام اليها . وقد أعطى الاسلام للقارة دينا جديدا ، وكتابة جديدة ولغة جديدة ساعدت على استيعاب المفاهيم الحضارية بشكل أدق وأوسع .

وقد اخرج الاسلام القارة من العزلة التي كانت تتخبط فيها وفتح لها أبواب التفتح على العالم الخارجي والاحتكاك به .

وعكس ما هو رائج بين المؤلفين الغربيين ، لم يفرض العرب دينهم بالقوة على الجماعات الافريقية بل عمل هؤلاء دوما ، على ملاءمة دينهم مع الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية الافريقية دون اللجوء الى استعمال العنف باستثناء بعض

الحالات . ولم ينتشر الاسلام في افريقيا السوداء بواسطة الفتوحات العربية ، كما يدعى ذلك بعض المؤلفين الغربيين ، علما أنه خلال الفترة الأولى للفتوحات العربية لم تسلم الا الطبقات الراقية ورؤساء البلاد وعلماؤها فقط ، بينما بقيت العامة من الشعب على ما كانت عليه من معتقدات روحية موروثة . ولم يعرف الاسلام تطوره الحقيقي . في غرب افريقيا السوداء وإلّا خلال القرن التاسع عشر الميلادي . وذلك بواسطة الفتوحات التي قام بها الزعماء الافارقة أمثال : عثمان دان فوديو ، وشيخو أحمدو والحاج عمر ، وساموري توري وغيرهم .

وفي الحقيقة فان هؤلاء الزعماء الأفارقة ، رواد الاسلام في افريقيا الغربية السوداء ، حديثا ، هم ثمرة من ثمرات الطرق الصوفية التي عملت في المنطقة ، حيث تربوا في أحضانها وتغذوا بلبانها ومن ثم كان دور الطرق الصوفية دورا عظيما في كل الميادين ، وذلك عكس ما يذهب اليه بعض المؤرخين الغربيين .

وقد ساهمت الطرق الصوفية الأصيلة في الميدان السياسي مساهمة تستحق الذكر وأقلقت كثيرا الاستعمار الفرنسي في شمال وغرب افريقيا وكثيرا ما حاربته حربا شديدا وظهرت بواسطتها عدة دول محلية ، تزعمها بعض الزعماء الأفارقة الذين ذكرناهم سابقا . ولئن لم تعمر طويلا هذه الدول بسبب محاربة الاستعمار الفرنسي لها ، الذي تمكن منها في آخر المطاف وأسقطها ، فانها على الأقل أعطت دفعة جديدة للاسلام

وحضارته في المنطقة وأيقظت بعض الاحساس والشعور بالمسؤولية في نفوس المسلمين في غرب افريقيا السوداء .

أما في الميدان الاجتماعي فقد كانت الطرق الصوفية تسعى لرفاهية الفرد ، وذلك بتقديم المساعدات للفقراء والعجزة ، وايواء المتشردين من الأطفال والشبان والشيوخ . ولئن لم تكن لها الامكانيات المادية الكافية لأسعاف أكثر عدد ممكن من المحتاجين لعونها ، فانها بذلت ما في وسعها للتخفيف من آلام التعساء وشقاء البؤساء . هذا وقد سعت الطرق الصوفية الى استتباب السلم والامن والطمأنينة بين الأفراد من جهة والقبائل من جهة أخرى ، وايجاد نوع من التضامن بين أعضاء هذه القبائل ، وذلك على جميع المستويات واشترت العبيد وثقفتهم ، وفقهتهم في الدين الاسلامي ثم أعتقتهم وجعلت منهم دعاة للاسلام وحضارته وثقافته .

ولا ينقص دور الطرق الصوفية أهمية في الميدان الثقافي ، بحيث فتحت المدارس هنا وهناك في غرب افريقيا السوداء وانفقت عليها وأشرفت على تسييرها بنفسها، اذ كان لكل زاوية كتابها ومدارسها ومعلموها التابعون لها ، وكان لهذه المؤسسات التعليمية دور في نشر اللغة العربية في المنطقة .

أما في الميدان الاقتصادي فكما سبقت الاشارة إلى ذلك فقد ساهمت الطرق الصوفية في تنشيط الحركة التجارية في المنطقة ، ووفرت كل الشروط المادية والمعنوية لذلك .

كتب للمؤلف :

1 ــ مآثر الاسلام الخالدة في إفريقيا جنوب الصحراء ، تحت السحب

2 ــ الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام ، الجزائر . 1986

3 ــ ثورة الأوراس 1916 ، تحت السحب .

4 ــ تطور اللغة العربية ومواقف الاستعمار الفرنسي منها ، في غرب إفلأيقيا ، معد للطبع .

5 ــ نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954 ، الجزائر ، 1986 .

فهـــرس المـواضيـــع

الفصـــل الأول

تطور نشر الاسلام في غرب افريقيا السوداء

الفصـــل الثانـــي

الطرق الصوفية ونشر الثقافة العربية الاسلامية في افريقيا السوداء

الفصل الثالث

آثار الاسلام والثقافة العربية في غرب افريقيا السوداء

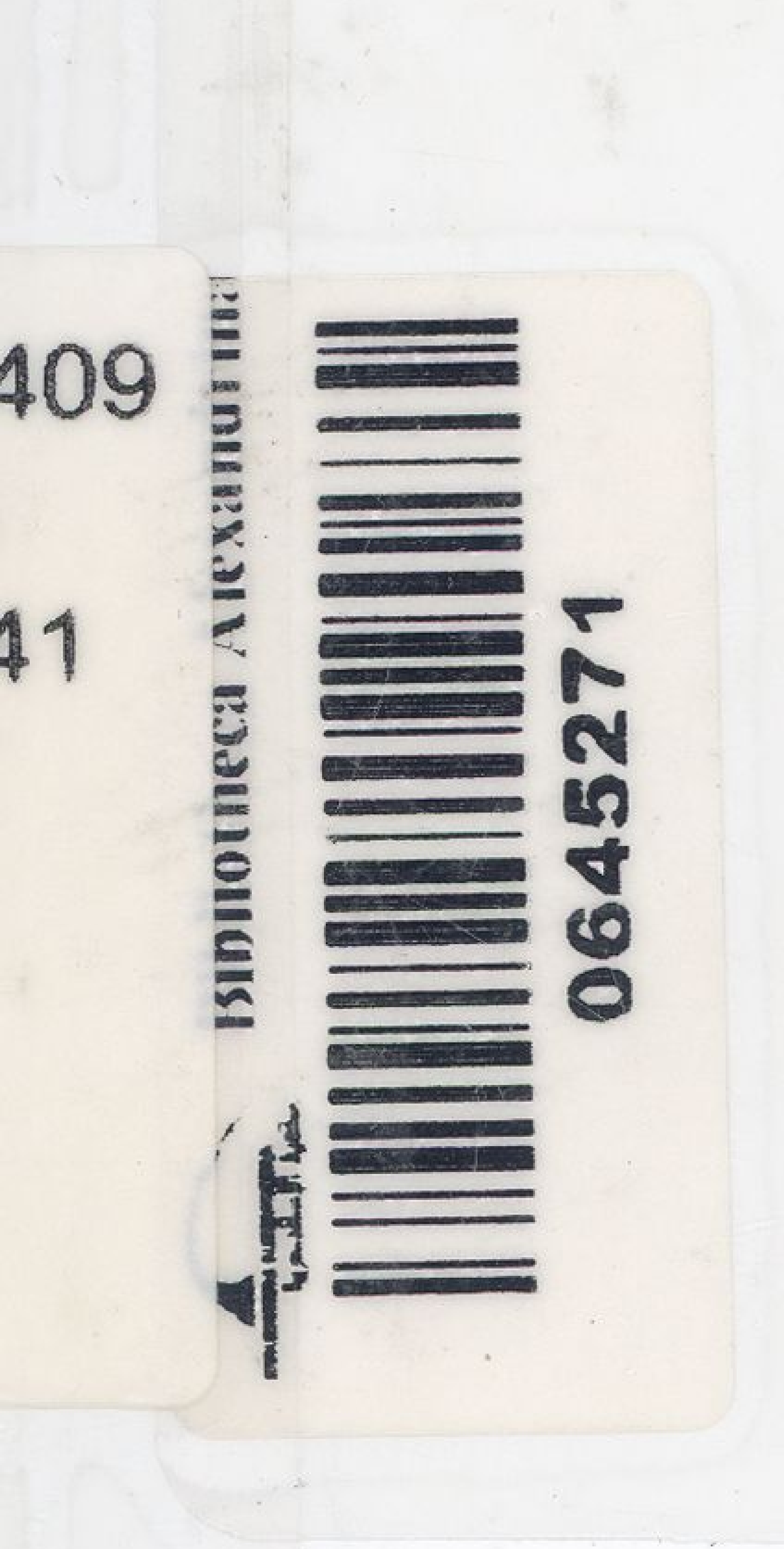
الفصل الرابع

الطرق الصوفية في غرب افريقيا

سحب الطباعة الشعبية للجيش

رقم الإيداع :2007-439
ردمك : 978-9947-24-110-3

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع



ISBN : 978-9947-24-110-3
9 789947 241103